جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

النخبة المثقفة وأزمة الهوية
رواية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح
(تضافر مناهج ورؤى مغايرة)

إعداد

د/ مريم محمود محمد الحسيني

قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة الإسكندرية

(العدد السادس والثلاثون)
(الإصدار الثاني .. مايو)
(١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م)

علمية- محكمة- ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

النخبة المثقفة وأزمة الهوية رواية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح (تضافر مناهج ورؤى مغايرة)

مريم محمود محمد الحسيني
قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة الإسكندرية، مصر.
البريد الالكتروني:marim.mahmood.98@gmail.com

الملخص :

حملت رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح رؤية المثقف العربي للهوية إشكالاتها، فأسهمت بما لها من طابع ديالكتيكي في طرح التداعيات الثقافية للعولمة وأثرها في استلاب الهوية العربية في مرحلة الكولونيالية، كذلك شكلت وعيًا إبستمولوجيًا بالآخر من خلال رؤية شمولية للعالم ازدوجت معها هويتنا في مرحلة ما بعد الكولونيالية. تقدم الدراسة في تحليلها للرواية طرحًا مغايرًا للفكر التي تداولها أدب ما بعد الاستعمار؛ حيث فكرة استلاب الهوية وازدواجيتها، وتناولت كل منهما في مبحثين؛ الأول دراسة بنيية لمنطلقاتها الفكرية، والآخر آليات التشكيل من الشخصية الروائية بنائها وأدوارها وعواملها، والسرد مكوناته وآلياته وبلاغاته، واللغة طاقاتها الدلالية. وأكدت الدراسة الوشائج بين مبحثيها بما تتبعته من دوال سيميولوجية تعالقت وبعضها بعضًا، وانتظمت سيرورتها من داخل النص إلى خارجه، حيث السياق الثقافي في شرطه التاريخي؛ فقدمت صورة لتشظي الذات العربية نخبتها المثقفة بين طرفي الأنا والآخر،في مرحلتين تاريخيتين؛ الفكر العربي في أولاهما رهين لسياسات التطبيع، التي تصاحبت والحركات الاستعمارية والعولمة؛ فكان الطمس للهوية العربية واستلابها مع محاولات السعي للهوية المثلى/النموذج الغربي إيديولوجيا المرحلة، ثم تشكلت الرؤية من جديد في الأخرى (مرحلة ما بعد الاستعمار)، فكان التحول عبر مجموعة الفكر الذهنية التي تشكلت في دوائر المثقفين؛ ومن ثم ملامح هوية جمعية بقبول الآخر دون الذوبان فيه؛ والرواية في ذلك بنائيتها وآليات تشكيلها ودوالها السيميولوجية وسيلة هذه الأيديولوجيا.

الكلمات المفتاحية: النخبة المثقفة –الأيديولوجيا – السوسيوبنائية – الشخصية الروائية– الطيب صالح – موسم الهجرة إلى الشمال – الهوية .

The Intellectual Elite and the Crisis of Identity, Season of Migration to the North by Tayeb Salih (convergence of different approaches and visions)

Maryam Mahmoud Muhammad Al-Husseini
Department of Arabic Language, Faculty of Education, Alexandria University, Egypt.
Email: marim.mahmood.98@gmail.com

Abstract

Literature, in general, has been the focus of culture and one of its most important branches. However, on a specific level, the genre of narration with its dialytic nature has been concerned with the ideological charge of the narrative texts, representing the notion of identity and its cultural repercussions, which have been manifested both by narrators in the form of semantic structures, based on contradictory ideologies, and through cultural political speeches, made by individuals or groups of great epistemological awareness and liberal intellects, capable of presenting opposing visions. The dimensions of the research objectives being essentially consistent with the ideology as a central structure of the text are strongly integrated with the syntactic units producing deep structures. Constructivism, in its contemporary concept, is considered a primary research module, being an essential keystone in sociotextual criticism with its interest in intratextual linguistic tools and narration structures with the discourse units it includes.

The novel " Season of Migration to the North" by Tayeb Salih, has displayed different ideologies and various approaches to the Arabic Intelligentsia, with regard to the issue of identity crisis and its representations, ranging from stolen identity to dual identity problems, and starting from globalization in the colonial period, up to the inclusive perspective of the intellectual, to the world of post-colonial period. The ideological viewpoint of the novel has been represented inclusive to the world and rich with linguistic functions. This is manifested through a network of semiotic references carefully created by the narrator across a range of semantically rich linguistic functions to narration structures and mechanisms.

Key words: Intelligentsia – Identity – Ideology – Personal Novelist - Season Of Migration To The North - Sociotexual- Tayeb Salih

مقدمة :

يرتبط النظام الثقافي في تشكلاته عبر العصور بذهنية الجماعة، التي هي سجالات التاريخ موروثاته وعاداته وتقاليده، كذلك صور الحياة السياسية في مراحلها المختلفة. وأول نتاجات البنية الثقافية لأي جماعة بشرية هويتها؛ فالهوية بوصفها "المعاييرالتي يعرف بها الفرد والجماعة والمجتمع والثقافة"(١)؛ تتحدد من التاريخ الجمعي عرقًا ولسانًا، وعرفًا ودينًا وقومية، وأهميتها أهمية وجود لكيانات كاملة، أثبتت حضورها على مر التاريخ، أو كانت في طي النسيان؛ ومن هنا كانت الهويات مستهدفة في كل زمان شهد صراع الحضارات، فبقي منها ما بقي، وشوه ما شوه، وانقضى ما انقضى.

ولا ريب أن الهوية العربية مرت بأزمات واستلابات وجودية ارتبطت أيما ارتباط بالنظم الثقافية في مجتمعاتنا العربية؛ فضلاً عن حركة التاريخ والبنى الاجتماعية والتجارب المعيشة، فـ "تجارب النجاح والفشل للجماعة، وسلوك أبطالها النموذجي عوامل تسهم في عملية بناء الهوية الثقافية للجماعة"(٢)؛ مما جعل هويتنا إشكالاتها قضية أساسية تتناوشها أيديولوجيات عدة، تنطلق عن وعي جمعي، وتتأثر بالشروط الراهنة تاريخية، أو سياسية، أو مجتمعية، فتتحدد مواضعها على خطية جدل القبول والرفض، البقاء والتغيير. ولكون الأيديولوجيا نسق فكريٌّ وشائجه الوعي والمجتمع، يتماس وجوانب الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والفلسفية والقانونية والاقتصادية(٣)؛ فإن اختلاف

(١) أليكس ميكشيللي، الهوية، ترجمة علي وطفة، دار الوسيم، دمشق، الطبعة العربية الأولى، ١٩٩٣، ص ٧

(٢) نفسه، ص٦٧

(٣) ينظر: عبد الله العروي،مفهوم الأيديولوجيا ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثامنة، ٢٠١٢م، ص١٣-١١. وأيضا، تيري إيجلتون، الماركسية والنقد الأدبي، ترجمة جابر عصفور، منشورات عيون، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية ١٩٨٦م، ص ١٣

الأيديولوجيات وتصارعها شكل من أشكال اختلاف مستويات الوعي، وتوزعها بين طرفي الوعي الكائن والممكن (بحسب تقسيم غولدمان)، كذلك باختلاف المجالات الحيوية، وطرق تعبيرها، وممارساتها فيما يتصل بالقضية المعني بها؛ فلا شك أن أيديولوجيا جماعة ما مرتهنة باختصاصها، واتفاقها أو اختلافها من داخلها أولاً، ثم فيما بينها وبين الجماعات الأخرى.

وفيما يتصل بقضية الهوية كان للنخبة المثقفة (الإنتلجنسيا) [١] مواقفها فيما يتصل بالسياق الخارجي وأثره في تشكيل العقل العربي؛ فهي حاملة إيديولوجيا الرفض والتغيير؛ فـ" نشاط المثقف يتضمن الإحساس بالتمرد والصراع"[٢]، نظرًا لكونه– بحسب منهايم Karl Mannheim – مؤهلاً لوعي إيديولوجي شمولي؛ لما له من قدرة على التحرر من الشرط الاجتماعي،... فترتقي بالمعرفة من المستوى الذاتي إلى المستوى العلمي الموضوعي"[٣]، فتحيط بجوانب الفكر، وتحاورها، ثم تتبنى موقفًا، وتنافح عنه.

أهمية البحث:

تكتسب الدراسة أهميتها من شخوص فكرتها ليس فحسب في ذهن المحلل السياسي أو عالم الاجتماع لكن القارئ والكاتب، فمساحتها على رقعة الأدب–

(١) يشير هذا المفهوم إلى أقلية من الكتاب وذوي الثقافات الراقية ومن بينهم الشعراء والأدباء، وقد تكون لهذه الفئة على نطاق محدود تأثيراجتماعيًّا أو سياسيًّا. ينظر: بوتومور، الصفوة والمجتمع، دراسة في علم الاجتماع السياسي،ترجمة وتقديم: محمد الجوهري وآخرون،، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سلسلة علم الاجتماع، الكتاب السادس، مطبعة الانتصار، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨م، ص:٨٦

(٢) إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص ٢٩، وينظر كذلك في المعنى نفسه ص ٧٨

(٣) جورج الطرابيشي، الماركسية والإيديولوجيا، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧١م، ص ١٩٥

بوصفه بؤرة الثقافة ورافدًا من أهم روافدها- لا تقل مساحة عنها في الكتابات ذات الطابع المعرفي، وللجنس الروائي خاصة بما له من طابع ديالكتيكي (بحسب وصف لوكاتشGoerge Lucas)[١]- علاقة وثيقة بالأيديولوجيات، حيث إن " الأيدلوجيات تدخل إلى عالم الرواية التخييلي كمكون جمالي يكون أداة في يد الكاتب ليعبر في النهاية بواسطته عن أيدلوجيته الخاصة"[٢]. والأيديولوجيا في ذلك مجاوزة أبعادها الإبستمولوجية والسوسيولوجية – وإن كانت تصدر عنها- لتكون رؤية إلى العالم يحملها فكر واع بتشابكاتها بين حقول المعرفة والإبداع (ما نجد صورة منه الآن في الدراسات البينية).

مشكلة البحث:

هي الرؤى المتغايرة لفكرة الهوية، وتداعياتها الثقافية، وكيفية تمثيلها روائيًّا من خلال نظم دلالية قائمة على بناء التناقض بين الأيديولوجيات، مرتكزاتها خطابات سياسية ثقافية يفرزها واقع متغير، وطرائقها البنية الروائية مستوياتها، واللغة دوالها.

عينة الدراسة:

على ضوء مشكلة البحث مثلت رواية موسم الهجرة إلى الشمال اختيارًا مثاليًّا؛ بوصفها أشهر نماذج أدب ما بعد الاستعمار معالجةً لفكرة الهوية العربية عبر طرح الأيديولوجيات المختلفة للنخبة المثقفة العربية منها، والمواكبة بين أيديولوجيتها والنظريات الحديثة في أدب ما بعد الاستعمار، وبشكل خاص ما تناوله دوارد سعيد في كتابه" الثقافة والإمبريالية"[٣]، وهو ما نفيض القول فيه في

(١) جورج لوكاتش، نظرية الرواية، ترجمة وتقديم: نزيه الشوفي، نسخة طباعة وتوزيع المترجم، ١٩٨٧م.من ص:٨١- ٨٩

(٢) حميد لحمداني، النقد الروائي الأيديولوجيا، ص ٤٠

(٣) إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت،الطبعة =

موضعه من الدراسة. فضلا عن هذا الجانب الإيديولوجي؛ مثلت "موسم الهجرة إلى الشمال" مصدر إغراء لي بما حملته من شفرات دلالية فتحت أفق التأويل على رؤى مغايرة لما استقرت عليه الدراسات النقدية بصددها من قبل.

تساؤلات الدراسة:

١- ما مستويات الغياب والحضور فيما يتصل بالهوية العربية تمثلاتها في نص الرواية؟

٢- ما آليات تشكيل الرؤية على مستوى الأنظمة الكلية للعمل (مستويات الرواية)؟ وهل لهذه الأنظمة بؤرة محورية أو نواة للتشكيل تمثل بنية جاذبة لغيرها من الأبنية الصغرى ؟

٣- هل ثمة خطاطة توزيعية مقصودة للوحدات الدلالية في النص؟ وما أثر ذلك في التدلال؟

٤- هل ثمة علاقات بين الوحدات وبعضها البعض؟

٥- ما دور المقام/السياق غير اللغوي؟ وما إسهاماته في فك الشفرة الدلالية للنص؟

منهج الدراسة:

تعتمد الدراسة عددًا من المناهج؛ فأبعاد أهداف البحث تتماس بشكل أساسي مع الأيديولوجية بوصفها بنية مركزية نشطة في جسد النص، تتداخل في علاقات شديدة التشابك مع الوحدات البنائية؛ قصد إنتاج البنية العميقة (غريماس Julien Greimas) أو البنية الدالة (غولدمانLucien Goldman)، أو التدلال؛ مما ينبه بحدوث تركيب منهجي بين المنهجين البنيوي والنقد الجدلي في نطاق الدراسات السوسيوبنائية Social constructivism، التي كانت من

=

الرابعة، ٢٠١٤م.

قبيل التجريب الذي استلزمه طبيعة النقد العربي، وأشار إليه بعض النقاد العرب[١]. ومن ثمّ فالبنائية في ثوبها المعاصر تعد منهجا أوليًّا للبحث؛ باعتبارها ركيزة أساسية للنقد السوسيونصي sociotexual بعنايته بالداخل النصي أدواته اللسانية وأبنيته السردية بما تشتمل عليه من وحدات الخطاب.

والدراسة في زاوية من زوايا بنائيتها تتماس مع رؤية أصحاب الفلسفات الماركسية –من أمثال ماركس وبيلنسكي– بنظرتهم إلى الطبيعة المادية والتاريخانية للأدب، ودوره في تغيير المجتمعات، وهي الرؤية التي تشكلت في مرحلة ما قبل الحداثة في إطار النقد الجدلي – عند لينين وبليخانوف– حيث فكرة الانعكاس المرآوي للمجتمع قيمه ومشكلاته[٢]. وهي الفكرة ذاتها التي قامت عليها دراسات علم اجتماع الرواية في عصر الحداثة وما بعدها، حيث انتهجت تلك الدراسات درب النقد السوسيولوجي للرواية بتماسه مع قطبي النص، والبناء الاجتماعي– عند كل من لوكاتش Lucas وغولدمان Goldman –، فارتبطت الحركة النقدية بمنهج البنيوية التكوينية في عنايته بالعلاقة الجدلية بين بنية العمل الأدبي والبناء الفكري المحيط به في تحديد لوظائفيته بما يحمله من رؤية كونية (رؤية العالم). ثم اتسعت الرؤية في نقد ما بعد الحداثة، فظهرت الدراسات السوسيونصية التي نرى أن عنايتها بالجانب اللغوي– كما في حوارية باختين Bakhtin وتركيبية زيما Pierre Zema,s– جعل منها حلقة ربط مناسبة بين مناهج الدراسة. وننوه أننا لسنا سباقين في هذا النحو المنهجي، فثمة دراسات اعتمدت السوسيوبنائية منهجًا للبحث[٣].

(١) ينظر، حميد لحمداني، النقد الروائي والأيديولوجيا، ص٤٦–٤٨

(٢) للتفصيل، ينظر: تيري إيغلتون، الماركسية والنقد الأدبي (الأدب والتاريخ)، ترجمة: عبد النبي إصطيف، مجلة الآداب الأجنبية، العدد ٤٨، السنة ١٣، صيف ١٩٨٦م.

(٣) حميدلحمداني، النقد الروائي والأيديولوجيا، ص ٤٠

فضلاً عن ذلك، النص الروائي القائم على الأيديولوجيا يستدعي – بما ينبني عليه من أنظمة فكرية مشفرة – وفقا لطبيعة الإبداع – توظيفًا لسيميولوجيا الدلالة عند بارث Roland Barthes تتبعًا للدلائل التي تشكل الرؤية في العمل الأدبي، فتشفير الرؤية الأيديولوجية في ثنايا النص الروائي تؤديه لغة المشحونة مكتنزة الدلالات، بحيث يكون الطرح الأيديولوجي من خلال شحنة إبداعية تعلي من القيمة الفنية للنص، وتزود القارئ بمفاتيحه، فاللغة – كما قال بارث Barthes– ليست "وسيطًا طبيعيًا شفافًا، يستطيع القارئ من خلال إدراك حقيقة أو واقع صلب متحد...(وإنما) تولد معنى حين تشاء، وتدمر رقابة المدلول وإلحاحه القمعي على معنى واحد"(١) .

واتصالاً بالسيميائيات؛ فإن النص محرك للبحث – في حيز سيرورة التأويل–عن مقصدية المتكلم، بما يفتح أفق البحث على السيمياء التداولية؛ حيث العناية بـ"دور المقام أو السياق غير اللغوي في التواصل الإنساني.. ومن يشاركون في بيئة الحدث الزمانية والمكانية، كما يهتم بقدرة السامع في الكشف عن مقاصد المتكلم واستجابته لها، وما يستلزمه التواصل من معان مقامية"(٢).

وهذا الانفتاح المنهجي الذي تعتمده الدراسة بدءًا بالبنائية ومرورًا بالسيميائية والسيميائية التداولية تحديدًا – ما هو إلا دراسة لمستويات الخطاب وأنظمته، فـ "الخطاب البنيوي يمكن أن يغدو هو ذاته موضوعًا للتفسير، حين يلاحظ الباحث السيميولوجي لغته من حيث هي (نظام ثانٍ) من الخطاب، يعمل بطريقة متباعدة عن لغة الموضوع التي هي (نظام أول)" (٣).

(١) رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ص:١٢٠

(٢) نفسه، ص ٤٦

(٣) رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة: جابر عصفور، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م، ص:١٢٠

وأخيرًا فالدراسة تصنف من الدراسات البينية بما لها من انفتاحها على شتى العلوم والمعارف التاريخية والسياسية، بالإضافة إلى علم الاجتماع والأنثربولوجيا، وغيرها من العلوم التي تسهم في جلاء الدلالة؛ وذلك لما تستند عليه خلفيات النقد الجدلي، وفي إطار سعيها للتأويل عبر مرحلتي الفهم والتفسير، وفي ضوء المقاربات التداولية للشرط التاريخي والثقافي للخطاب.

الدراسات السابقة:

رؤى النقاد (صراع الأنا والآخر؛ الهوية العربية، الصورة المتخيلة للشرق والغرب)

ربما لم تحظَ رواية عربية بقراءات نقدية مثلما حظت"موسم الهجرة إلى الشمال"؛ وعلى قدر ما قد يدفع هذا الباحثين الجدد لصرف النظر عنها لاعتقاد استيفاء محاور دراستها من قبل السابقين؛ فقد كانت مغامرة البحث فيها مبنية على خطوات منهجية؛ أولها: استقراء الدراسات السابقة وقوفًا على منطلقاتها الفكرية، والمنهجية التي اعتمدتها، ومن ثم النتائج التي خلصت إليها.

تنوعت الدراسات التي تناولت الرواية بالتحليل في إطار فكرة الأنا والآخر، الهوية، نظرية ما بعد الاستعمار. فضلاً عن الدراسات التي تناولت جوانب فنية من الرواية، كل جانب على حدة كالأسماء ورمزيتها، والأمكنة ودلالاتها(١). وسوف أعنى بالنوع الأول من الدراسات؛ لأن موضوعة البحث الرؤية الأيديولوجية باعتمادها كل موجهٍ إليها من البنية النصية ذاتها، فلا تكون الدراسات الفنية وظائفيتها إلا بإشارات لهذا الملمح أو ذاك.

(١) مريم أكبري موسى آبادي، دلالة المكان في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، مجلة إضاءات نقدية، جامعة أصفهان، إيران، السنة الثانية، العدد السابع، ٢٠١٢م، كلثوم مدقن، دلالة المكان في رواية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح، مجلة الآداب واللغات، جامعة ورقلة، الجزائر، العدد الرابع، مايو ٢٠٠٥م،

دراسة خيري دومة"عدوى الرحيل، موسم الهجرة إلى الشمال ونظرية ما بعد الاستعمار"[١]:

وهي دراسة تنظيرية لنظريات ما بعد الاستعمار وخطاب الاستشراق عند إدوارد سعيد وفرانز فانون، فالعلاقة قائمة بين رواية موسم الهجرة إلى الشمال ونظريات ما بعد الاستعمار، بالرغم من أن الرواية سابقة للنظرية، يذهب الباحث إلى أن الرواية تطرح إشكالية المثقف الوطني المستعمَر الذي يشتهي المعرفة في بلاد الغرب، ويعود بعد رحلة طويلة ممزقًا، فمصطفى سعيد نموذج المثقف العربي الإفريقي في مواجهته للاستعمار، عاش تجربة الاستعمار كاملة وهاجر وراءها وحينما عاد عاد غريبًا.

أفنان القاسم"موسم الهجرة إلى الشمال أو وهم العلاقة شرق وغرب"[٢]:

تنوه" أفنان القاسم" إلى عجز الطيب صالح أدواته الفنية عن استيعاب العلاقة بين الشرق والغرب بأبعادها السياسية والاجتماعية والإنسانية والفكرية، وتعتمد وصولا لهذه النتيجة البنائية منهجًا، تخلص منه برؤية فكرية للرواية مؤداها القول بتوزع مصطفى سعيد بين عقله الموجه للغرب وقلبه الموجه للذات، في إشكالية صراعية تعكس زيف المنظور في كل علاقة في الرواية، فمصطفى سعيد صورة عامة زائفة للشرق من نظر الغرب، وكذلك الغرب صورة زائفة من نظر مصطفى سعيد، لذلك تتلمس أفنان القاسم صورة النقاء الغربي وتستدل عليه بنماذج من شخوص الرواية في مقابل الجنون الشرقي ممثلا في مصطفى سعيد، الذي ترى فيه أيقونة الحقد والكراهية للغرب.

---

(١) خيري دومة، عدوى الرحيل، موسم الهجرة إلى الشمال ونظرية ما بعد الاستعمار، دار أزمنة، ٢٠١٠م.

(٢) أفنان القاسم، موسم الهجرة إلى الشمال أو وهم العلاقة شرق وغرب، عملية نقد ونقض الرواية، الطبعة الأولى، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٤م.

سيزا قاسم "موسم الهجرة إلى الشمال"[١] :

تنظر سيزا قاسم في العلاقة الثنائية بين الشرق والغرب في الرواية على ضوء محدد ثالث وهو "الوهم"، الذي يحكم تصورات كل طرف عن الآخر، ويمنع مصطفى سعيد من رؤية الغرب على حقيقته، كذلك الإيهام في رؤية الغرب للشرقي ممثلا في مصطفى سعيد وفي الوقت نفسه يحرص على أن يقدم للغرب صورة خيالية تتفق مع صورته المسبقة عن الشرق. وتتكئ سيزا على عناصر فنية لإبراز قيام الرواية على هذه الرؤية المغلوطة، فتحدد النسق الدلالي الكلي للرواية ثم تتوسل القصص بنائيته والبلاغة أدواتها لتأكيد رؤيتها.

جورج الطرابيشي "شرق وغرب، رجولة وأنوثة، دراسة في أزمة الجنس في الرواية العربية"[٢]:

إشكالية الأنا والآخر في دراسة الطرابيشي هي إعادة تمثل لفكر الاستشراق ونظريات ما بعد الاستعمار، فمصطفى سعيد هو الثائر العربي ينتقم من كل ما هو غربي، وسيلته للانتقام شهوتا الجنس والقتل، فقد جاء ديار الغرب غازيا" يثأر بطريقته الخاصة للعشرين ألفًا من السودانيين الذين سقطوا برشاشات كتشنر. وكان يثأر بطريقته الخاصة من مدرسة حضارة الاستعمار، مدرسة التدجين والمثاقفة" [٣]. والنساء الغربيات مدن شمالية تتحول غرفته لتكون مقبرة لهن. وهو يقتل ويغزو ليؤكد هوية انتماءه وفي نظر الطرابيشي يمثل مصطفى سعيد جيل

(١)سيزا قاسم، موسم الهجرة إلى الشمال، مجلة فصول، العدد الثاني، يناير ١٩٨١م، من ٢٢٤- ٢٢٩

(٢) جورج الطرابيشي، شرق وغرب، رجولة وأنوثة، دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية،دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٧م، ص: ١٤٢- ١٨٥.

(٣) نفسه، ص:١٥٤

الهجرة الأولى لبلاد الانجليز، فكان عنفه فضحًا للعنف الغربي عاجًا بالحقد الذي لا يعرف معه الحب، أما الراوي فيمثل الهجرة الثانية، فكان أقل توزعًا بين المتناقضات، وهو يبدو في تحليل الطرابيشي خائر الهمة حتى ليلتمس له الأعذار من هنا وهناك، ويحدد دوره بالدور الدرامي في مقابل الدور التراجيدي للبطل الثائر مصطفى سعيد.

ولا تخرج عن هذه الرؤية دراسة الباحثة علياء عطية محمد" الذات والآخر في رواية موسم الهجرة إلى الشمال"دراسة تحليلية[١]، أحلام معمري، "الصراع الحضاري في رواية موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح قراءة في وصم البشرة السوداء[٢].

فضلاً عن هذه الدراسات فإن ثمة مقالات لا تصنف أبحاثًا علمية ولا نعدها من قبيل الدراسات الجادة لافتقارها منهجية البحث وعناصره، إلا أننا ننوه لها لتناولها موضوع الدراسة أو شق منه، وهي: دراسة **شريف مراد" موسم الهجرة إلى الشمال وسؤال الهوية"**: وتبدو فيها الذات في صورة الشرق البدائي المستعمَر، مثله مصطفى سعيد بنوازعه البدائية شهوانيته وعنفه واندفاعه الجنوني في اتجاه الآخر ممثلا في الحضارة الأوربية مجسدة في شخصية جين مورس، فكان الصراع بين البدائية والتحضر، كذلك **دراسة ثائر دوري"الوجوه المتعددة للمثقف الكولونيالي في رواية موسم الهجرة إلى الشمال"**[٣]: وهي دراسة ذات

(١) علياء عطية محمد" الذات والآخر في رواية موسم الهجرة إلى الشمال "دراسة تحليلية، مجلة كلية الآداب، جامعة الزقازيق، العدد ٩٦، يناير، ٢٠٢١م.

(٢) الصراع الحضاري في رواية موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح قراءة في وصم البشرة السوداء، سياقات اللغة والدراسات البينية، العلوم الطبيعية، المجلد الرابع، العدد الأول، ٢٠١٩م.

(٣) مجلة الكلمة، العدد ١٦، إبريل، ٢٠٠٨.

رؤية فكرية عميقة قاربت في جزء منها ما وقفنا عليه من تعدد صور المثقف في الرواية، إلا أن صاحبها لم يبحث المقتضيات الفنية لرؤيته، فجاءت قراءة عامة على ضوء السياق المعرفي لا الأساس النقدي.

تعقيب:

اعتمدت الدراسات النقدية السابقة في تحليلها لموسم الهجرة إلى الشمال– وقوفًا على رؤيتها الأيديولوجية– السياق الثقافي والخلفيات المعرفية منطلقًا للتحليل، فاتجهت من خارج النص إلى داخله، معتمدة النغمة الشهيرة لخطابات أدب ما بعد الاستعمار كونه في عالمنا الثالث خطاب مضاد للغرب. وبالرغم من أن تلك النظرة خطاب مركزي يصدره الغرب إلى العالم بهدف منه تأكيد الهوة بين العالمين(١)؛ فإنه لازال ماثلا في الخلفية المعرفية للعقل العربي، وبأثر هذا الخطاب طوّعت معطيات النص لتجانس نغمته، فكانت الدراسات دائرة في فلك هذه الرؤية العامة بتحليل الحدث الروائي واعتماد تيمة الجنس أو العنف في صراع الأنا والأخر على نحو ما وقفنا في دراستي سيزا قاسم وجورج الطرابيشي، أو سلاح المعرفة والعلم كما في دراسة أفنان القاسم ودراسة خيري دومة. وكان تحليل الداخل النصي في أضيق الحدود وبإشارات متفرقة غير خاضعة لمنهجية بحثية، تقصد لما يتفق وسلطة الخطاب – نسقه الكلي كما ورد في دراستي سيزا ودومة– من أبنية جزئية مقتطعة عما يجاورها من وحدات.

(١) من تحليل خطاب الاستشراق لإدوار سعيد، كذلك كتابه الثقافة والإمبريالية، كانت رؤية مؤداها أن الخطاب السائد بين مثقفي العالم الثالث هو الخطاب المضاد للغرب، مؤكدين حضورهم في هذا العالم وإزائه بوصفهم ينتمون إلى هويات مختلفة، في حين أن الأصل في تأكيد تحيزات العرق والجنس وتأكيد فكرة التابع والمتبوع العالم الغربي نفسه وخطابه المركزي. ينظر :رشيد وديجي، إدوارد سعيد ونظرية خطاب ما بعد الاستعمار، آفاق المعرفة، وزارة الثقافة، ع ٧٠٦ ، ٢٠١٤م، ص:٢١٢-٢١٣

وقد قصدتُ في هذه الدراسة إلى الأنظمة الداخلية للنص بحثًا في علائقها ببعضها بعضًا، في مسلك مغاير لما سبق تكون الإفادة بالسياقات الخارجية في حدود ما لا الخلفيات النظرية لإضاءة ما تفتحه أبنية النص بوصفها منطلقًا أول للتحليل. والدراسة في ذلك غير خاضعة لأي من الخلفيات النظرية، متحررة من سلطة نظريات ما بعد الاستعمار، أو سلطة نصوص سابقة عليها جُسِّدتْ فيها صورة الآخر أوإشكالية الهوية والصراع الحضاري بين الشرق والغرب، من مثل روايات "عصفور من الشرق" للحكيم، وقنديل أم هاشم ليحيى حقي، الحي اللاتيني لسهيل إدريس.. وغيرها.

<u>الأنا والآخر (رؤية مغايرة): أبعاد التشكيل وسيرورة التحول</u>

١– <u>الهوية المستلبة، فكرتها، وآليات تشكيلها:</u>

١–١ فكرة الاستلاب ومرحلة الكولونيالية:

يرسخ على مدار النص فكرة استلاب الهوية في شخص مصطفى سعيد بوصفه غير منتمٍ لأصوله العربية، وهو ما لمسته سيزا قاسم في دراستها، دون أن تمتد به، فسرعان ما تفلت الخيط بأثر من هيمنة فكرة الغزو والانتقام(١). فغربته غربة انتماء ليس مردها بحال من الأحوال هجرته إلى الغرب، بل تنكره لذاته، فالتفكك الذي طرح بوصفه اختيارًا نقيضًا للأصولية في عصر العولمة والانفتاح؛ جسده الطيب في شخصية مصطفى سعيد. وقد برز انعدام الأصولية منذ البداية في كونه أرضا صالحة لغراس المستعمر أفكاره، وسياساته الاستلابية " **غرسوا**

(١) أشارت سيزا قاسم إلى محاولة مصطفى سعيد للتشبه بالآخر العربي، واشتهائه كل ما يمتلك، بل إنه لا يشعر بالرغبة الجنسية إلا عند التقائه بامرأة أوربية..غير أن سيزا قاسم تذهب في تفسير ما وقفت عليه إلى أن اشتهاء امرأة الآخر من قبيل السيطرة. ينظر: سيزا قاسم، موسم الهجرة إلى الشمال، مجلة فصول، ع٢، ج١، يناير ١٩٨١، ص: ٢٢٧

في قلوب الناس بغضنا، نحن أبناء البلد، وحبهم المستعمرون الدخلاء...تأكد أنهم احتضنوا أراذل الناس، أراذل الناس هم الذين تبوأوا المراكز الضخمة أيام الإنجليز، كنا واثقين أن مصطفى سعيد سيكون له شأن يذكر"[١].

لقد تمثل مصطفى سعيد في الرواية بطلاً مأزومًا في كنف ثقافة أصلية مهزومة وأخرى خارجية مهيمنة؛ مما "طرح الاستعداد للتغيير والحداثة بصيغ مختلفة..تضمنت التخلي عن جزء من الذات (أو التنكر للذات).. وأزمة هوية عميقة"[٢]، نلمح آثارها حينا في هدم روابط التبعية التي تشده إلى جماعته أو قوميته أو إلى الماضي الجمعي الذي يشكل بحد ذاته تاريخ الجماعة والمجتمع، وملء هذا الفراغ بالشعور بالفردية، والنزعات السلبية، وهو ما عبر عنها البطل بمزيج من الإحساس باللامسؤولية وعدم الانتماء في رحلة اغترابه عن أرضه وتاريخه وثقافته "**وضرب القطار في الصحراء، ففكرت قليلا في البلد الذي خلفته ورائي، فكان مثل جبل ضربت خيمتي عنده وفي الصباح قلعت الأوتاد وأسرجت بعيري**" [٣].

فالصورة تعبر عن حالة من حالات استلاب الهوية، تحدث عندما "تتعرض (الذات) إلى تأثير نظام من العمليات الخارجية التي تعمل على إحداث تغيرات عميقة في جوهرها"[٤]؛ مما يجعلها تفقد الشعور بالاستمرارية الزمنية، والتمايز، والاستقلال، وتصبح أكثر استعدادًا لما يعرف بالتقمص الثقافي" ويكون حينما ينظر إلى معايير وقيم وسلوك جماعة أخرى بوصفها نموذجًا مرجعيًا له"[٥]، ففي

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص٥٠

(٢) أمين المعلوف، الهويات القاتلة، قراءات في الانتماء والعولمة، ترجمة نبيل محسن، دار ورد للطباعة والنشر، سورية– دمشق، الطبعة الألى، ١٩٩٩م،ص: ٦٥

(٣) الطيب صالح، موسم الهجرة: ص:٢٥

(٤) أليكس ميكشيللي، الهوية:١٤٧

(٥) أمين المعلوف، الهويات القاتلة: ص: ٦٥

هذا الحين تتعرض الهوية للتشويه والانكسار ، وقد تذوب الذات وتتلاشى في الآخر. وقد أتى هذا الانصهار والذوبان مجسدًا في زواج مصطفى سعيد من جين مورس– الذي كان بداية النهاية بالنسبة لفكرته –"**مصطفى سعيد كان أول سوداني تزوج إنجليزية..فقد نزح من زمن، تزوج في إنجلترا، وتجنس بالجنسية الإنجليزية..قام بدور خطير في مؤامرات الإنجليز في السودان في أواخر الثلاثينيات**"(١).

وقد جسدت علاقة مصطفى سعيد بـ"**جين مورس**"– باعتبارها **رمز الحضارة الغربية، والنموذج النموذجي للهوية** الذي يسعى البطل للالتحام به– لعملية التنميط التي يمارسها الغرب من ناحية، ولإشكالية مصطفى في قبوله لهذه العملية في ظل اتجاهه المباشر نحو العولمة من ناحية أخرى. فقد حملت أفعال جين على مستوى الحدث بعدًا دلاليًّا مهمًّا؛ فمثلت لعملية الإكراه السيكولوجي التي يمارسها المستعِمر على المستعمَر في إطار **عملية التطبيع** القسري التي من آلياتها الأساسية: التبخيس، والمكافأة، وهما محركا الحدث في علاقة جين بمصطفى سعيد.

١–١–أ التبخيس:

إن التبخيس بوصفه " عملية تبدأ من النظرة الدونية..عبر عملية تخريب القيم..أو من خلال تدمير عملية التقدير التي تضفيها الجماعة على فعاليتها وأنشطتها "(٢) مارستها جين بشكل إكراهي تعسفي منذ لقائها الأول بمصطفى سعيد "**وقفت قبالتي، ونظرت إلي بصلف وبرود..فتحت فمي لأتكلم، لكنها ذهبت**"(٣)، وفي المرة الثانية، قالت لي جين مورس:"**أنت بشع. لم أر في حياتي**

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص٥٢

(٢) أليكس ميكشيللي، الهوية:٨٦

(٣) الطيب صالح، موسم الهجرة: ص:٣٠

وجها بشعا كوجهك"[١] ، "**وذات يوم قالت: أنت ثور همجي لا يمل من الطراد**"[٢]. وإن محاولات محاولات جين لهدم الشعور بالقيمة في نفس مصطفى سعيد في إطار سياسات متعمدة يمارسها المستعمرون على المستعمرين لتحقيرهم وإشعارهم بالدونية، يجردونهم من إنسانيتهم، ويعدونه حيوانا، ويتكلمون إليه باللغة المستعملة في وصف الحيوان[٣]، أيضا اتبعت جين سياسات المستعمر في إطار عمليات التبخيس والقهر بترسيخها المستمر شعور بالفشل والهزيمة والشلل في طاقة الفعل الاجتماعي، فبينما يستهلك مصطفى سعيد جل طاقاته في حرب ضروس، لا يسعها إلا أن تذقه مرارة الهزيمة والخذلان" **لا تفتأ تلك الابتسامة المريرة على فمها. أقضي الليل ساهرا، أخوض المعركة بالقوس والسيف والنشاب، وفي الصباح أرى الابتسامة ما فتئت على حالها، فأعلم أنني خسرت الحرب مرة أخرى**"[٤]. وإن أفعال"جين" ما هي إلا انعكاس لفكرالاستعمار وسلطوية وسلطوية الغرب؛ فثمة" ثقافة مرجعية مشتركة تشكل الإطار العام للحركة الثقافية على وجه العموم، وهي ثقافة تمارس فعالية الاستلاب على الأفراد الذين يعيشون داخلها"[٥]، وأول خطوات هذا الاستلاب تعطيل وإيقاف الفعل التقدمي للآخر، والحد من ازدهاره بشتى وسائل العنف والإكراه "**كل معركة تنتهي بتمزيق كتاب أو بحث أضعت فيه أسابيع كاملة**"[٦].

(١) نفسه، ص:٣٠

(٢) نفسه، ص:٣٣

(٣) ينظر: فرانز فانون، معذبو الأرض، نقله إلى العربية: سامي الدروبي، وجمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر – القاهرة، ٢٠١٥م، ص ٤٤

(٤) نفسه، ص:٣٣

(٥) أليكس ميكشيللي، الهوية:١٣٦

(٦) الطيب صالح، موسم الهجرة: ص:١٤٤

وعملية التبخيس ليس الهدف منها فحسب تدعيم الشعور بالهوية السلبية، بل دفع المستهدف إلى تمثل الأنماط السلوكية للجماعة الغربية (النموذج النموذجي)، وعلى رأسها العنف، فجين لا تفتأ تصدر إلى البطل هذا الإحساس من موقع عدم القدرة مزعزعة بذلك شعور الثقة بما اكتسبه من وسطه الثقافي المرجعي "**قالت أنت يا حلوي لست من طينة الرجال الذين يقتلون. أحسستُ بالذلة والوحدة والضياع**"(١).

١-١-ب المكافأة:

مثلما اتبعت جين مورس أساليب التبخيس لخلخلة المشاعر البنائية لهوية الهدف المنشود استلابه، كذا استخدمت إستراتيجية المكافأة في سبيل هدم المرجعيات الثقافية، ووأد الشعور بالانتماء، وقطع الروابط الاجتماعية والشعورية التي تشد البطل إلى جماعته العربية؛ فما إغراءات جين لمصطفى سعيد، وتمنيتها إياه بنوالها وأخذها إلا تشجيعا له للتخلي عن كل ما يتصل بهويته الثقافية الأصلية من تاريخ أو لغة أو دين تحت هيمنة وضغط الآخر" **أشارت إلى مخطوط عربي نادر على المنضدة. قالت: تعطيني هذا أيضا. حلقي جاف. أنا ظمآن يكاد يقتلني الظمأ. لابد من جرعة ماء مثلجة. أشرت برأسي موافقًا. أخذتْ المخطوط القديم النادر ومزقته وملأتْ فمها بقطع الورق ومضغتها وبصقتها. كأنها مضغت كبدي، ولكنني لا أبالي**"(٢).

ويتضح من النص السابق أن إشكالية مصطفى سعيد لم تكن فحسب هويته السلبية المأزومة، وإنما في تصرفه حيالها، فقد كان"مستعدًا لقبول كل شيء وابتلاع كل شيء (من الآخر الغربي) دون تمييز إلى درجة ألا يعرف من هو، ولا إلى أين يذهب، ولا إلى أين يذهب العالم"(٣). في نفس الوقت تأتي الهوية

(١) نفسه، ص:١٤٣

(٢) نفسه، ص:١٤١

(٣) أمين المعلوف، الهويات القاتلة: ص: ٦٥

الثقافية العربية مطموسة المعالم في عالم مصطفى سعيد الغربي، فإذا كانت اللغة– من بين كل العناصر التي تحدد ثقافة وهوية ما– محور الهوية الثقافية؛ فإن اللغة الإنجليزية تتصدر المشهد في كل ما يتعلق بحياة مصطفى سعيد في الغرب، بل إنها سمة مائزة له في أول خروج عن دياره، ففي رحلته الأولى متوجها إلى القاهرة يعقب على الحديث الدائر بالإنجليزية بينه وبين رجل في مسوح" **قال لي جملة لم أحفل لها كثيرا وقتذاك. وأضاءت وجهه ابتسامة كبيرة وأردف: إنك تتحدث الإنجليزية بطلاقة مذهلة**"(١)، وعلى الرغم من الكم الهائل من الكتب التي عثر عليها الراوي بالغرفة الإنجليزية الطراز بمنزل مصطفى سعيد بعد اختفائه؛ إلا أنه "**لا يوجد كتاب عربي واحد**"(٢).

ومن هنا، فإذا كان التطبيع "يولد– كما يقول بواريه J.Poirier– ثقافة متناقضة ومشوهة تنطلق من معيارين متناقضين، هما: الثقافة الأهلية التي تمثل تراث الآباء والأجداد، ثم الثقافة الدخيلة التي تولد المعاصرة..(بما يؤدي إلى) ازدواجية في الهوية تعود إلى وجود نموذجين يتميزان بالأصالة"(٣). وقد كان مصطفى سعيد نموذجًا لهذا التشظي الثقافي، فبينما يعاني من هوية سلبية تجاه أصوله العربية دفعته للتنكر لذاته؛ فإنه منجذب صوب هوية نموذجية هي الهوية الغربية في إطار التقمص الثقافي.

١–٢ آليات التشكيل ودورها في تأسيس الرؤية :

إن ما شيده المؤلف بحرفية معمارية على مستوى البناء الداخلي للرواية يؤسس بعمق لتلك الرؤية؛ فقد تعددت الآليات وتشابكت في سبيل الكشف عن طبقات النص غير السطحية، واستخراج الدلالة الكامنة بينها، وهو ما سنرصده

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة: ص:٢٦

(٢) نفسه، ص:١٢٤

(٣) أليكس ميكشيللي، الهوية، ص:١٥٥

في الصفحات القادمة على مستوى البنى السردية في إفرادها وتراكبها داخل النص الروائي.

١-٢-أ الشخصيات، وظيفية البناء، ونظرية الأدوار:

(أ-١) شخصية البطل(اللامنتمي):

جاء وصف الكاتب لشخصية" مصطفى سعيد" "وصفًا خلاقًا -حسب تصنيف جان ريكاردو- يشيد المعاني ذات الدلالات الرمزية"[١]، فاسم الشخصية المركزية علامة لسانية قائمة بشكل أساس على فكرة المغالطة التي يتمثلها الكاتب حيلة فنية تمويهية على مدار روايته، فمصطفى من الاصطفاء وهو الاختيار ولا يكون إلا لمزية، ذكرها الكاتب في قوله:" **كان ابن الإنجليز المدلل**"[٢] .أما "سعيد" فأكذوبة، وصف تكذبه أقوال الشخصيات عنه " **أنت يا مستر سعيد إنسان خالٍ تمامًا من المرح**"[٣]، وهو كذلك وصف مدحوض بالحياة التي عاشها والنهاية التي انتهى إليها، وذلك وفق ما ورد على لسان الراوي عنه" **مسكين مصطفى سعيد، كان مفروضًا أن يكون له شأن بمقاييس المفتشين والمآمير، ولكنه لم يجد حتى قبرًا يريح جسده في هذا القطر الممتد مليون ميل مربع**"[٤]. وإن توزع البناء المزدوج لاسم" مصطفى سعيد" على طرفي الحقيقة والكذب بهذه الحيلة التمويهية إنما يرهص بفكرة الكاتب عن أنصاف الأشياء، الرؤية بعين واحدة، نصف الدائرة...التي نرى أن رؤيته الأيديولوجية مبنية بشكل أساس على تقويضها.

(١) محمد عزام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج الحداثية، "دراسة في نقد النقد"، منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق، ٢٠٠٣م، ص:٣٣٥

(٢) الطيب صالح، موسم الهجرة: ص ٥٠

(٣) الطيب صالح، موسم الهجرة: ص ٢٦

(٤) نفسه، ص ٥١

ولا شك أن وصف الكاتب لزاوية بعينها من زوايا بناء الشخصية إنما يأتي من أجل الوظيفة والدور الذي يسنده إليها، فالوصف وحدة إدماجية ووظيفة إرشادية – بحسب بروب– يسهم بدوره في تحديد موقف الكاتب الأيديولوجي من الشخصية، ومن ثم زاوية الصراع الايديولوجي بينها وبين غيرها من الشخصيات، فإذا كانت الشخصية –بنائيًّا–" مورفيمًا فارغًا في الأصل سيمتلئ تدريجيًّا بالدلالة"[1]؛ فإنها نهاية وبعد تشكلها تضحى– في نظري– كقطعة (البازل) لها رسم وشكل وحجم وموضع لا تكتمل الصورة/ الرؤية إلا به، ومن هنا فإن ما يعول عليه الطيب صالح من الوصف التفصيلي لملامح الشخصية الجسمانية – وهي آلية يلتزمها الكاتب مع شخوصه كافة– ليس عبثًا، فالوصف الذي يقدمه الطيب وصف عالم بالأجناس البشرية، يماهي ويناقض بين شخصياته وسلالات بشرية بعينها[2] متجاوزًا في ذلك الدال اللساني إلى مدلولات الكلام التي ترتبط هنا أيما ارتباط بنص الثقافة وما يحتويه من فكر الهوية واستلابها وازدواجها.

(١) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ص٢١٣

(٢) السلالة هي قسم كبير من نوع يحتل أصلا –منذ التشتت الأول للنوع البشري– إقليمًا جغرافيًا موحدًا كبيرًا. يلامس مواطن سلالات أخرى عبر دهاليز ضيقة من الأرض. وقد اكتسبت كل سلالة داخل إقليمها صفاتها الموروثة المميزة، بمظهرها الفيزيقي المتطور وخصائصها الإحيائية غير المنظورة عن طريق القوى الانتخابية لكل أوجه البيئة، بما في ذلك قوة الثقافة، وبعد أن تميزت كل سلالة بصفاتها الخاصة بدأت في ملء مجالها الجغرافي، مقاومة غزو الآخرين. ولقد كان المظهر الطبيعي (الفيزيقي) –حتى ظهور علم الوراثة الحديث– هو الوسيلة الأولى لوصف السلالات.. ثم تقدم الأنثربولوجيون خطوة أخرى واتخذوا من أساليب القياس والتحليل الإحصائي للصفات السلالية المنتشرة في عينات كبيرة من السكان، وقد لخصت هذه النتائج وأعطت أوصافا تفصيلية للسلالات المختلفة مع بعض التجاوزات. ينظر: كارلتون إس كون، إدوارد أ. هنت الابن، السلالات البشرية الحالية، ترجمة: محمد السيد غلاب، مؤسسة الأنجلو المصرية –القاهرة، ١٩٧٥م، ص ٣١

مصطفى أحد أبناء الخرطوم وفق ما ورد في وثيقته، إلا أن أوصافه تغاير تمامًا ملامح الأفارقة، فمصطفى سعيد بجبهة العريضة، وشعره الغزير الأشيب، وأأنفه الحاد، وفمه الرخو، وعينيه الناعستين، وذراعيه القويتين مع الأصابع الطويلة الرشيقة!، فضلاً عن أنه ليست له لحية، وشاربه أصغر قليلا من شوارب الرجال[١] ؛ يخالف بشكل كلي الصفات الجسمانية لأهل الجنوب؛ "فلهم لحى متوسطة إلى خفيفة. أما الصفات الأخرى فهي الجبهة المكورة قليلا، والعيون الجاحظة، والأنف العريض، والشفاه المقلوبة، والفك البارز، والأسنان الضخمة"[٢].

وإذا كانت ملامح شخصية مصطفى سعيد قد غايرت ملامح الأفارقة؛ فإنها قد قاربت إلى حد بعيد الصفات العامة للسلالة القوقازية وهي السائدة في معظم أوربا، وبلاد البحر المتوسط، حيث" الوجه العريض والأنف المدبب، والشفاه رقيقة عادة"[٣].

ولربما يبدو أمر الاختلاف والتشابه في صفات الشخصية لأول وهلة غير دال، لكن حالما يقترن بمجموع الدوال المتحركة على سطح النص يتضح المدلول، فـ" المدلول يتحدد بواسطة الوحدات المجاورة له...وقيمة وحدة ما هي ذات طبيعة علائقية"[٤] ، ومن هنا فإذا ما نظرنا إلى هذا الدال بوصفه علامة سيميائية مدلولها عدم الانتماء أو الغربة عن الأراضي السودانية لاحتجنا لتأكيد هذه الفرضية إلى النظر في المجال الدلالي للنص بأكمله، وإدراك العلاقات بين

(١) ينظر: الطيب صالح، موسم الهجرة: ص ١١، ٦

(٢) كارلتون إس. كورن، إدوارد أ. هنت، السلالات البشرية الحالية، ص: ٣٤

(٣) نفسه، ص: ٣٢

(٤) سالم شاكر، مدخل إلى علم الدلالة، ترجمة محمد يحياتين، دار المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٢، ص٢١.

العلامات اللسانية وبعضها البعض " فالعلامة تشكل لا يستمد قيمته ولا دلالته من ذاته، وإنما يستمدها من طبيعة العلاقات بينها وبين سائر العلامات الأخرى"(١).

ويمثل تاريخ المولد (١٨٩٨) وتاريخ الوفاة (١٩٥٦) الخاص بالشخصية إشارتين كرونولوجيتين على قدر كبير من الأهمية في شبكة العلامات السيميائية المحددة للمجال الدلالي للشخصية، حيث يشير الأول إلى بداية الاستعمار البريطاني للأراضي السودانية ، في حين يشير الآخر إلى نهايته، بما يجعل حياة مصطفى سعيد في موازاة لفترة الاستعمار(٢)؛ مما يثير محموعة من الأسئلة منها: هل كان مصطفى سعيد وجها آخر للمستعمر؟ وهل تشظيت هويته بمعايشته؟ هل نحن أمام قضية ازدواج أم استلاب للهوية؟ وما الخيوط الدلالية التي ينسجها الكاتب في سبيل الرؤية؟.

وبصدد الإجابة عن هذه الفرضيات يبرز **دور السرد** في تأكيد معنى النص وإضاءة جوانبه المختلفة، حيث" يتمثل هذا المعنى في التركيب الداخلي للنص، هذا التركيب الذي يتضح فيه التعليق المتراتب للأجزاء مع الكل"(٣). ففيما يتصل بمصطفى سعيد يؤكد الكاتب معنى غياب الهوية ، بالاشتغال على آليات السرد المختلفة، وأبرزها **الاسترجاع** لإضاءة سابق الشخصية " **مات أبي قبل أن أولد ببضعة أشهر.. لم تكن لي أخوة، (أمي) شفتاها رقيقتان، وعلى وجهها شيء مثل القناع، لا أدري قناع كثيف.. لم يكن لنا أهل.. كانت كأنها شخص**

(١) عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، تونس، الدار التونسية للنشر، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٦م ، ص٣٠.

(٢) مجدي شبيكة، السودان عبر القرون، دار الجيل- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م، ٤: ٤٦١- ٥٤٥.

(٣) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٢م، ص:١٠٧

غريب جمعتني به الظروف صدفة في الطريق. لعلني كنت مخلوقًا غريبًا، أو لعل أمي كانت غريبة ، لا أدري...أحس إحساسًا دافئًا بأنني حر، بأنه ليس ثمة مخلوق أبًا أو أمًا، يربطني كالوتد إلى بقعة معينة ومحيط معين"(١).

والاسترجاع وإن كان يبدو للوهلة الأولى خارجي بحسب إشارته الدلالية لماضي الشخصية، فإن تعالقه على المستوى الدلالي بزمن الحكاية الأصلي– من حيث كونه ممثلاً لبداية التكوين والتشكل للشخصية الروائية موضوع الرؤية– يخلق منه استرجاعًا داخليا مثلي القصة (٢)؛ لكونه النقطة الزمنية الأولى للحكاية الرئيسة من جهة، ومجسدًا على المستوى الدلالي لأزمة الهوية وبعدها الأيديولوجي في النص من جهة أخرى.

فنظرًا لأن السرديات النصية لا تتعالق مع بعضها بعضًا على مستوى أفقي فحسب، بل على مستوى رأسي كذلك؛ تبدو الآلية السردية في علاقة اشتمال لغيرها من الآليات بالشكل الذي يجاوز مسألة التناسب والانسجام بين الدلالات على المستوى الكلي للعمل إلى توليد الدلالة على النطاق السردي

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص، ٢٣

(٢) يصنف جيرار جينيت الاسترجاعات إلى استرجاعات خارجية وأخرى داخلية، حيث الاسترجاع الخارجي هو الذي تظل سعته كلها خارج سعة الحكاية الأولى فلا توشك أي لحظة أن تتداخل مع الحكاية الأولى؛ لأن وظيفتها الوحيدة هي إكمال الحكاية الأولى عن طريق تنوير القارئ بخصوص هذا السالف. أما الاسترجاعات الداخلية فهي تلك الاسترجاعات التي يكون حقلها الزمني متضمنا في الحقل الزمني للحكاية الأولى.كذلك يصنف جينيت الاسترجاعات إلى استرجاعات غيرية القصة وأخرى مثلية القصة، فالأولى تتناول خطا قصصيا مختلفا عن مضمون الحكاية الأولى، بينما تتناول الاسترجاعات مثلية القصة العمل نفسه الذي تتناوله الحكاية الأولى. ينظر: جيرار جينيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م، من ص ٣٠–٦٢.

الواحد أيضًا مما يعمق الوجهة الدلالية، ويكسبها مزيدًا من المصداقية؛ فإن **اللغة الواصفة** داخل بنية الاسترجاع أسهمت بمعطياتها اللغوية وطاقاتها التخييلية في تأكيد فكرة الغياب المتسلطة على الهوية بشكل كبير، فتكرار لفظ الغربة على المستوى المعجمي، والمادة الحكائية المشكلة للحدث من موت الأب ، ونفي وجود أخوة، وتأكيد الانقطاع عن الأهل؛ كلها دوال سيميولوجية تؤكد الانبتات عن الجذر التي أدتها بوضوح الصورة التمثيلية " ليس ثمة مخلوق يربطني كالوتد إلى بقعة معينة ومحيط معين". وإذا كان الأصل في الرؤية الغياب، فالحضور مضطرب فوجه الأم متعدد ومتمازج الألوان، وربما غير حقيقي، فهو قناع كالبحر يخفي أسراره، وما عسى السر في ذلك إلا أن يكون للدلالة على عدم نقاء الأصل الذي يلقي بظلاله على انبتات الابن عن جذر يشد إليه. هذا ومن ناحية أخرى يستمر الوصف ليكسبه هوية مغايرة، تتضح فيما يرويه الراوي على لسان إحدى شخصياته" **كان أبوه من العبابدة، القبيلة التي تعيش بين مصر والسودان، إنهم الذين هربوا سلاطين باشا من أسر الخليفة عبد الله التعايشي، ثم بعد ذلك عملوا روادًا لجيش كتشنر حين استعاد فتح السودان. ويقال إن أمه كانت رقيقًا من الجنوب من قبائل الزاندي أو الباريا، الله أعلم. الناس الذين ليس لهم أصل هم الذين تبوأوا أعلى المراتب أيام الإنجليز**"[1].

يشتغل الكاتب في النص السابق على إشارات تتطلب **الإحالة على الوحدات الخارجية في إطار تحليل تداولي للخطاب**؛ حيث تتصل الوحدات الإخبارية التي أوردها الكاتب بنص الثقافة الجامع بين مرسل النص ومستقبله. فالدوال اللغوية المتحركة في إطار السياق تاريخي لا يمكن الوقوف على مدلولها، وما يؤديه هذا المدلول من قيم إلا من خلال مساءلة الخبرات التاريخية

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ٥١

والاجتماعية بحثًا عما ورائها عبر القراءة الإسقاطية وفي إطار مستوى التلقي التداولي[١]. فالحدث الأدبي المنوط بالأب يحمل مرجعيات سوسيوثقافية وتاريخية تشير إلى فكرة العمالة للدول الأجنبية والولاء والتبعية للغرب [٢]. هذا في حين يأتي التأكيد على غياب الأصل ونفي الهوية السودانية عن الأم من خلال منظومة التصورات المتكونة بالعقل الجمعي عن الرق، كذلك من خلال اللغة

(١) المستوى التداولي من مستويات التلقي وظيفته الرئيسة إيصال رسالة أو عكس رسالة ، وهو في ذلك يرتبط بشعر المحاكاة أو النصوص المغلقة ذات الإشارات الصريحة والقصد المباشر ، ويقوم هذا المستوى على ضوابط ومرجعيات سسيوثقافية تاريخية واجتماعية وأدبية الغرض منها تحقيق الألفة بين المؤلف والقارئ . والقارئ هنا مقصود يقصد إليه الكاتب فهو أي فرد من الذات الجماعية التي عاشت الأوضاع الثقافية لمؤلفه فتوجه إليها النص أول ما توجه باعتبارها ذاتًا قادرة على أن تعيد بناء تصورات القصد المباشر للنص والمؤلفة في إطار السياق العام : راجع :نعيم اليافي : الشعر والتلقي (دراسات في الرؤى والمكونات) – دار الأوائل للنشر والتوزيع – سوريا – دمشق ، الطبعة الأولى – ٢٠٠٠م – ص ٢٦–ص٣١.

(٢) سلاطين باشا ضابط نمساوي حكم دارفور في عهد الاستعمار المصري البريطاني للسودان عام ١٨٨٤م ، اعتقله الخليفة عبد الله التعايشي (عبد الله تورشين) زعيم الثورة المهدية في السودان(مدعي المهدية)، واستطاع سلاطين باشا الهرب سنة ١٨٩٥م بمساعدة ثلاثة من الزعماء المنقلبين على الخليفة المهدي، ففر إلى الجيش المصري، ثم عاد واسترد دنقلا وأم درمان بالأراضي السودانية، له كتاب بعنوان السيف والنار في السودان ترجمه عبد الله الطيب وآخرون إلى العربية.وتذكر المصادر التاريخية الجهود الذي بذلها عبد الله تورشين على صعيد السياستين الداخلية والخارجية، ثم نهايته على يد جيش السردار كيتشنر في موقعة أم دبيكرات، وقد تحدث كثير من المؤرخين عن بطولاته، فالمؤرخ الأمريكي ج. أز روجرز يشهد بأن المهدية أعظم مثال للبطولة والتفاني يمكن أن يوفره التاريخ. أيضا يصف تشرشل الخليفة ورجاله" بالشجعان الذين قاتلوا بشرف واستشهدوا بشرف". ينظر، مجدي شبيكة السودان عبر القرون، من ص: ٣٨١– ٣٨٧

الوصفية الرامزة في قوله" **شفتاها رقيقتان**"(١)، فالشفرة هنا تتحرك على سطح النص لتكشف باطنه، أو ما وراءه "ما هو أبعد من لفظه الحاضر"(٢)، فهي تؤكد عدم انحدارها عن السلالة الكونغرانية –الأفارقة والزنوج– التي تتميز بالشفاه الممتلئة المقلوبة، في حين تشير ضمنًا إلى انحدارها من الجنس القوقازي، حيث "الشفاه رقيقة عادة"(٣).

وإذا كانت تيمة الغزو في قول مصطفى سعيد" **إنني قد جئتكم غازيا**"(٤) هي دافع النقاد في تحليلهم لشخصية مصطفى سعيد بكونه ذلك العربي الثائر الذي عانى من ويلات الاستعمار فأتى بلاد الغرب منتقمًا كما أوضحنا سابقًا(٥)؛ فإن النظرة المتأنية في طبيعة الغزو الذي يعنيه مصطفى سعيد ونتيجته تفصح عن رؤية دلالية مغايرة. إن غزو مصطفى سعيد كان غزوًا معرفيًّا في ظل مرحلة العولمة، يحدوه فيه انبهاره بثقافة الغرب. وقد توزعت الإشارات السيميولوجية في الوحدة التاسعة (قبل الأخيرة) من الرواية لترجح هذه الرؤية، فغرفة مصطفى سعيد تمثل حياته؛رؤاه، وتوجهاته، وما كان يسعى إليه، أيضا النتيجة التي وصل

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ٢٣

(٢) ينظر ما ورد عن تصنيف تودروف للقراءات إلى قراءة إسقاطية وقراءة الشرح والقراءة الشاعرية، حيث تعنى الأخيرة بقراءة النص من خلال شفرته بناء على معطيات سياقه الفني ، والنص هنا خلية تتحرك من داخلها مندفعة بقوة لا ترد لتكسر كل الحواجز بين النصوص ، ولذلك فإن القراءة الشاعرية تسعى إلى كشف ما هو في باطن النص ، وتقرأ فيه أبعد مما هو في لفظه الحاضر . راجع : عبد الله الغذامي ، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الرابعة – ١٩٩٨م ، ص ٧٧–٧٨.

(٣) كارلتون إس. كون، إدوارد أ. هنت، السلالات البشرية الحالية، ص:٣٢

(٤) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص٨٧

(٥) البحث، ص:٧

إليها؛ فهي غرفة إنجليزية الطراز "**الغرفة المستطيلة المثلثة السقف، الخضرء النوافذ**"(١)، تفترشها الأبسطة الفارسية، وتتصدرها مدفأة إنجليزية، وتنعكس على مرآتها وجه الحضارة الغربية ممثلا في جين مورس (٢)– تشهد على رحلة مصطفى سعيد صوب المعرفة؛ فحيطان الغرفة الأربعة من الأرض حتى السقف رفوف كتب(٣)، والمعرفة–هنا – غربية بحتة، فلا يوجد بين كل تلك الكتب كتاب واحد عربي (٤).

إننا أمام منظومة سيميولوجية ذات دوائر محورية، تتشابك دوالها وتتكامل لتفضي إلى مدلول واحد من شأنه تقريب زاوية من زوايا الصراع الأيديولوجي للخطاب السردي، فمصطفى سعيد غريب عن الأرض السودانية، وهو ما أكده الراوي على لسانه في أكثر من موضع، منها قوله:" **البلد بلدي، وهو(مصطفى سعيد) – لا أنا– الغريب**"(٥)– وغربته غربة انتماء، فهي البعد الثالث والمقصود من بعدي الغربة الظاهرين المتمثلين في مغايرة البعد الجسماني للجنس السوداني، واضطراب الأصل وغيابه.

(أ–٢) الشخصيات النسائية الغربية:

تتحدد مدلولات **الشخصيات النسائية في عالم مصطفى سعيد** بوصفها رموزًا متحركة على سطح النص، فبناء شخصيات آن همند وشيلا غرينود وإيزابيلا سيمورا من جهة، وشخصية جين مورس من جهة ثانية؛ قد حدد وظيفتها على مستوى الرؤية والدلالة.

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ١٢٢

(٢) ينظر: الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ١٢٣

(٣) ينظر:نفسه، ص ١٢٣

(٤) ينظر: نفسه، ص ١٢٤

(٥) نفسه، ص ١٢

(أ-٢-١) مسز روبنسن (الغرب – البعد الإنساني وعالمية الرؤية):

تمثل مسز روبنسن الحضن الأمومي لمصطفى سعيد؛ وذلك بإشاريتها إلى الخيرية في العالم الغربي، تلك الروح المحبة للشرق، يدان مبسوطتان بالعطاء، تجسد على المستوى السردي وفي محاور النموذج العاملي للشخصيات علاقة الرغبة المتصلة بين الغرب والشرق، علاقة مركزيتها العطاء، لذا جاء على لسان مصطفى سعيد" **لم أجد رأسًا غير رأسها أُسند رأسي إليه**"(١). مسز روبنسن وزوجها مستر روبنسن قدما صورة للعالمية بما تقوم عليه من فكرة اتصال الحضارات بروابط المحبة والإخاء، مع احترام تمايز الهويات ديانة وقومية، فمعهما زار مصطفى سعيد " **جوامع القاهرة، ومتاحفها وآثارها. وكانت أحب مناطق القاهرة إليهما، منطقة الأزهر. كما حين تكلُّ أقدامنا من الطواف، نلوذ بمقهى بجوار جامع الأزهر، ونشرب عصير التمر هندي، ويقرأ مستر روبنسن شعر المعري**"(٢). هذه المرأة في انسجامها وتعاطيها برباط الأمومة مع مصطفى سعيد هي من يكتب الكلمات الأخيرة في قصة الحضارتين "**سأكتب عن الخدمات الجليلة التي أداها ركي(مستر روبنسون) للثقافة العربية، مثل اكتشافه لكثير من المخطوطات النادرة وشرحها والإشراف على طبعها، وسأكتب عن الدور العظيم الذي لعبه موزي(مصطفى سعيد) في لفت الأنظار هنا إلى البؤس الذي يعيش فيه أبناء قومه تحت وصايتنا كمستعمرين**"(٣). كلمات مشعة بالحب والتفهُّم تتشكل منها صفحات كتاب عالمي عن جهود الغرب المخلصة للنهضة بالشرق العربي الإسلامي، كذلك إدانة وصاية المستعمر، وتنديد بأعماله الوحشية،

(١) نفسه، ص ٢٧

(٢) نفسه، ص ٢٧

(٣) نفسه، ص ١٣٣-١٣٤

وما تسبب فيه من بؤس في الدول المستعمرة، كذلك إعادة تشكيل للرؤية الحقة، بالنظر فيما بين اللونين الأبيض والأسود من درجات.

(أ-٢-٢) الشخصيات الغربية:

(أ-٢-٢-أ) آن همند-شيلا غرينود-إيزابيلا سيمور: الانتماء الجمعي والهوية المشتركة:

مثلت هذه الشخصيات الغربية الثلاث المرجعية ذات البعد التاريخي والحضاري المرتبط بنص الثقافة؛ فجاءت نقضًا لفكرة الهوية المركزية؛ فـ" حقائق الحياة وتطور الاجتماعية وتاريخ تطور الجماعات والحضارات كل ذلك يشير إلى وجود هوية مشتركة جمعية (أنا مشترك) سابق في الوجود للهوية الفردية أو الأنا الفردية"(١).

وقد أسهمت بنائية للشخصية الحكائية، وما تلبسها من دوال سيميولوجية في الكشف عن هويتها في إطار بناء الكلي مرتهن بالقارئ(٢)، الذي يإعادة إنتاج النص وفق شروط تداوليته. وفيما يأتي تفصيل لكل شخصية منهن على حدة، ثم تعقيب على اجتماعهن في ربقة فكرة مشتركة.

(أ-١) آن همند (التمازج الثقافي بين الحضارتين العربية والغربية قديمًا وحديثًا):

إن الخطاطة التوزيعية لظهور **شخصية** "**آن همند**" في وحدتين منفصلتين في الحكي، من معينات دلالة الشخصية بطرائق تقديمها؛ فقد ظهرت "آن" في الوحدة الأولى (الفصل الثاني من فصول الرواية) لوحة غربية رسمت بريشة فنان في مرحلة ما بعد الكولونيالية ، فـ" **أبوها ضابط في سلاح المهندسين،**

(١) أليكس ميشيلي، الهوية: ١٠٥-١٠٦

(٢) ينظر: حميد لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، ص ٥٠

وأمها من العوائل الثرية في ليفربول، تدرس اللغات الشرقية في أكسفورد..آن همند قضت طفولتها في مدرسة راهبات. عمتها زوجة نائب في البرلمان"[1].

والوصف هنا اضطلع بوظيفة إرشادية (وحدة إدماجية بحسب بارث) تضرب بقوة في العمق الدلالي لنص الرواية ككل من ناحية، وتعكس صورة صراع النفسذهني للبطل في مرحلة اغترابه من ناحية أخرى؛ ف"آن" معادل فكري للغرب المتحضر بأفكاره ومساعيه الإيجابية للعرب، أو لنقل- على العموم – الوجه المشرق للغرب في مرحلة ما بعد الكولونيالية. هي امتداد للأفكار التحررية في السودان، وذلك بقرائن النص والسياق؛ فسلاح المهندسين في السودان هو أول مؤسسة عسكرية ومدنية تمت سودنتها، ومن ضباطها من شارك في الحرب العالمية الأولى والثانية، ومنهم من رفع علم الحرية يوم ميلاد السودان الحرة، ومن ثم فأصول "همند" من الأب تحمل جذوة المقاومة والحرية والاستقلال من أجل الحق الإنساني العربي عامة والسوداني خاصة، كذلك فإن جذورها الممتدة إليها من الأم تذكي هذه الجذوة؛ فالأم من العوائل الثرية في ليفربول أقدم موطن للأفارقة السود المحررين. ولا نود أن نقول إن الأم ذات جذور إفريقية – وإن جاز الأمر على الصعيد الدلالي حيث يؤكد نص الرواية في أكثر من موضع على فكرة تلاقي الجذور في العمق الإنساني-؛ لأننا نكون بهذا قد اقتطعنا جزءًا من اللوحة وبنينا عليه أحكامًا، في حين أن اللوحة أركانها متكاملة؛ فالأبوان جسدا النزعة التحررية ببعدها الإنساني؛ أيضا جاءت الإشارة إلى تربية همند في مدرسة راهبات لتدعم البعد الأخلاقي ذا الوشائج الدينية، بكل ما تقوم عليه الديانة المسيحية الحقة من مبادئ التسامح والمحبة والإخاء. فضلاً عن ماسبق، تنبني اللوحة على ركن حقوقي تشريعي" فعمتها زوجة نائب في البرلمان" في إشارة إلى

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ٣٠-٣١

صوت الشعب أمام الحكومة؛ وذلك يجعلنا نلح على أن "آن همند" فكرة ذهنية تجسد – في هذه اللوحة المعطاءة– الفكر الغربي غير السلطوي بدعائمه الإنسانية والأخلاقية والتشريعية.

وتُقدَّم"آن همند" في وحدة أخرى من وحدات الحكي (الفصل قبل الختامي) لوحة أخرى متكاملة الأركان كذلك، إلا أنها مختلفة زمنيًا ودلاليًّا عن نظيرتها الأولى، فقد عمد الطيب صالح إلى تشكيل شخصية "آن همند" بشكل يعكس التقاطع الثقافي والحضاري في مرحلة مهمة من مراحل التاريخ العربي، حيث تمازج العجم والعرب في العصر العباسي وبشكل خاص في زمن المأمون ، وهو ما يؤكده المقطع الحواري الدائر بين آن والبطل، حيث" **قالت باللغة العربية: أنت جميل تجِلُّ عن الوصف، وأنا أحبك حبا يجِلُّ عن الوصف. قلت لها بعاطفة أخافتني حدتها: أخيرًا وجدتك يا سوسن..هل تتذكرين؟ قالت بعاطفة لا تقل عن عاطفتي حدة: كيف أنسى دارنا في الكرخ في بغداد على ضفة نهر دجلة أيام المأمون؟ أنا أيضا تقفيت أثرك عبر القرون، ولكنني كنت واثقة أننا سنلتقي**"(١).

وإذا تجاوزنا مستوى الدال الذي تتبعنا من خلاله شفرات النص وصولاً إلى المدلول؛ حيث تتجاوز الشخصية حدودها التقنوية لتنفتح عبر فعل تأويلي على التدلال أو الرؤية، فإن اللوحتين متطابقتين من حيث الدلالة، وهما – في الوقت نفسه – مكملتان لبعضهما البعض، تعكسان شكلين أو مرحلتين من مراحل الالتقاء العربي الغربي؛ تتمثل أولاهما في العصر العباسي الأول، وبشكل خاص في عهد المأمون، بينما الأخرى في العصر الحديث، وهما مرحلتان مجسدتان لعلاقة الأخذ والعطاء بين العالمين العربي والغربي، فاللوحتان نقطتان في دائرة

(١) نفسه ، ص ١٢٦

الحضارة، إحداهما أسبق من الأخرى ، فبينما سلطت اللوحة الأولى الضوء على الجانب المشرق للحضارة الغربية في مساندتها للعرب في العصر الحديث؛ جسدت الأخرى صورة للحضارة العربية في أزهى عصورها؛ حيث كانت منهلاً عذبًا لمختلف الثقافات الأجنبية الوافدة ، فضلاً عن دورها الريادي في العطاء الذي جسده الكاتب في نص الرواية بأكثر من إشارة؛ أولها حديث "آن" إليه – وهي ممثلة للفكر الغربي– باللغة العربية ، وثانيها تقديمها ضيفةً عليه – كما ورد في النص السابق– ، وثالثها علاقة السيادة بين البطل ممثل الأصل العربي، وآن بأصولها غير العربية" **ركعت وقبلت قدمي، وقالت: أنت مصطفى مولاي وسيدي، وأنا سوسن جاريتك. هكذا كل واحد منا اختار دوره في صمت، هي تمثل دور الجارية، وأنا أمثل دور السيد.. في غمرة السكر والجنون أخذتها فقبلت، لأن الذي قد كان بيننا كان منذ ألف عام**"(١).

والنص– كغيره من نصوص الطيب صالح– يبوح بأكثر من كلماته، فتتحدد الدلالة بما يتضمنه من بلاغات سردية (غريماس) تتمثل في علاقة الرغبة التي تتضح من قوله" **كانت (عكسي) تحن إلى مناخات إستوائية. وشموس قاسية، وآفاق أرجوانية. كنت في عينيها رمزًا لكل هذا الحنين. وأنا جنوب يحن إلى الشمال والصقيع**"(٢).

وجدير بالذكر أن علاقة الرغبة تلك بين العاملين علاقة غير سلطوية، قوامها النُّسغ المشترك الذي سرت عصارته بينهم، فوحَّد بينهما في مرحلة مهمة من مراحل التطور، وجمعهما على تاريخ واحد ضارب في عمق القدم، وهي ذات العلاقة القائمة على قبول الآخر التي جسدتها "آن" في صورتها الأخرى – مع

(١) نفسه ، ص ١٣٢

(٢) نفسه ، ص ١٢٨

تغاير مراكز القوى– بوصفها حاضرًا، وحملها الكاتب رؤيته استشرافًا، مع الأخذ في الاعتبار أن نقاط الدائرة عود على بدء.

(أ–٢) شيلا غرينود (أيديولوجيا التغيير وتحولات النزعة العنصرية):

يأتي التشخيص لشخصية **شيلا غرينود** خلاقًا كذلك؛ حيث يعمد الكاتب إلى تلبيس الشخصية بأخرى، هي المقصودة، على نحو تضحى معه أوصاف شخصية شيلا غرينود ذات شحنة دلالية عالية، فما هي إلا انعكاسات لصورة شخصية لها حضورها الداعم لرؤية الكاتب وتوجهه من شكل حضور الآخر إيجابًا وسلبًا على الشخصية العربية عامة والإفريقية خاصة. وإن استيعاب معطيات بناء الشخصية " يعكس كونها تنويعا ثقافيا يخبر عن العمق الحضاري لمجموعة بشرية ما"(١)؛ فبتتبع مراحل ظهور شخصية شيلا غرينود في النص ندرك إشاريتها إلى تحولات النظرة العنصرية لوضعية العربي/ الإفريقي من قطب الحيوانية إلى الإنسانية، فقد قدّم الكاتب الشخصية في وحدتين منفصلتين ، جاءت الأولى منهما رامزة إلى الوضعية المجتمعية الغربية ذات النزعة الوحشية في المرحلة الكولونيالية؛ حيث استهلها بتحديد للوسط المادي للشخصية" **خادمة في مطعم في سوهو**"(٢)، فإن تعيين المكان هنا ليس بعبث؛ فسوهو –كما وصفها الأديب كولن ولسن – مكان" لا يعرف معنى الطهارة.. وفي كل مكان عصابات مراهقة من الشبان الأقوياء من سكان المنطقة، أو من المهاجرين الزنوج، يحملون في جيوبهم الخلفية أمواسًا حادة يستعملونها بسرعة خاطفة.. إن منطقتنا بمجموعها كتلك المناطق التي يحلو للكتاب المحدثين أن يلونوها بجو مخيف من الشر المتأصل في عيون الناس فيها، قد يكون هذا حقيقة،. ولكن المكان لا

(١) سعيد بنكراد، شخصيات النص السردي، البناء الثقافي، سلسلة دراسات وأبحاث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، الطبعة الأولى،١٩٩٤م، ص١٤٧

(٢) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ٣٤

يؤمن بالخلق، ويكاد يخرج عن الإنسانية، بيد أنه ليس بالشرير" [١]. فالوحدة الدلالية الصغرى ممثلة في اللفظة/ اسم المدينة حققت انفتاحًا على أكوان دلالية من شأنها أن تعكس حالة ثقافية ركائزها العنف والهمجية والعنصرية التي ولدت بدورها مزيدًا من السخط الناجم عن شيوع تجارة الرق وممارسة شتى صنوف الظلم الإنساني تجاه العبيد الأفارقة في فترة مزامنة للمرحلة الكولونيالية، وبشكل خاص في جنوب القارة الإفريقية. ومن الجدير بالذكر أنه بالرغم من كل هذا البؤس الذي عبر عنه الكاتب بإشاريته لتلك الضاحية؛ فإن ثمة حقيقة بيضاء من ثنايا الصورة القاتمة، وهي أن المجتمع نهاية ليس بالشرير، وهي الفكرة الفلسفية التي تبناها كولن ولسن ، وعبر عنها الطيب صالح حينما استأنف الوصف لشيلا غرينود ناعتًا إياها بجميل الصفات النفسية متمثلة في ابتسامتها وبساطتها وحلاوة حديثها[٢] ، فضلاً عن أن" **أهلها قرويون من ضواحي هُل**"[٣]، وهي إشارة لها دور في تدعيم الموقف الفكري للكاتب إزاء العالم الغربي، فهو بإشاريته إلى" هُل" يفتح أفق المتلقي على وجه آخر للغرب يتسم بالإنسانية، فتلك الضاحية هي موطن انبعاث حملة إلغاء الرق والعبودية في إطار الإصلاح الاجتماعي على يد "وليم ويلبارفورس" أحد ممثلي النزعة الدينية المحافظة (الإنجيلية الحقة)، والنزعات الإنسانية [٤]؛ وهو ما عين دلالة الشخصية في حيز نص الثقافة

(١) كولن ولسن، ضياع في سوهو، دار الآداب، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٩م، ص٢٣٣،٢٣٤

(٢) ينظر: الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ٣٤

(٣) نفسه ، ص ٣٤

(٤) ينظر:

William Wilberforce and Aolishing theSlave Trad:How true Christian values ended support of slavery, Amasing Grace' Movie: هذا المقال هو ملخص من Lessons for Today's Politicians," Copyright Rusty Wright 2007 .

الجامع بين مرسل النص ومتلقيه، حيث أبرز توجهه الشعوري إزاءها بما يعهد إليها من صفات حسية ونفسية– تخاطب فكر القبول والرضا والاستملاح في نفس المتلقي، وتلقي بظلالها كذلك على الشخصية في إطار نموذجها العاملي المحدد بعلاقة الرغبة ، فهي تحمل آيات السلام والطمأنينة والاستبشار على ملامحها، ودعوات الحق على لسانها، والفطرة في باطنها.

ويأتي الظهور الآخر لشيلا غرينود في نهاية الحكي محددًا لموقفها بوصفها رمزًا للقوى الفكرية ذات النزعات الإنسانية في المجتمع الغربي من ناحية" **كانت ذكية تؤمن بأن المستقبل للطبقة العاملة، وأنه سيجيء يوم تنعدم فيه الفروق، ويصير الناس كلهم أخوة**"(١)، ومحددًا كذلك – وعلى طرف مقابل– لمعارضة رموز السلطة الغربية (برمزية الأبوين) لهذه الحملات الفكرية، فما ورد على لسان "شيلا" من قولها" **أمي ستجن، وأبي سيقتلني إذا علما أنني أحب عبدًا أسود**"(٢)؛ يشير –بغير شك– لأعضاء البرلمان من أصحاب الفكر العنصري والمناهضين لإلغاء العبودية الذين تصدوا أكثر من مرة لمشروع ويليام ويلبرفوس لإلغاء الرق. ومن هنا نقول إن شخصية شيلا غرينود بوجهيها في الحكي تمثل للحقيقة في بساطتها وعمقها في آن واحد، فلا حقيقة راسخة بين البشر أقوى من الصلة الإنسانية التي تجمعهم في ربقتها، وإن كان العنف هو فعل التاريخ، والشر من آثاره؛ فإن" الشر سيموت ولن نعرفه. وأما الحقيقة فهي الطاقة الكامنة والمحرك العظيم الذي يقودنا نحو جامعة يكون العمل فيها هو اللعب، واللعب هو الحياة"(٣).

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ١٢٦

(٢) نفسه ، ص ١٢٦

(٣) كولن ولسن، ضياع في سوهو، دار الآداب، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٩م، ص١٢٦

(أ-٣) إيزابيلا سيمورا (الأصل المشترك وتاريخ تطور الجماعة):

يتبع الكاتب في رسمه لشخصية **إيزابيلا سيمورا** نفس المنهج الذي سار عليه في تقديمه لشخصيتي آن همند وشيلا غرينود؛ حيث يحيلنا على نص الثقافة عبر مجموعة من "الخواص المعرفية العامة التي تجعل من الممكن إنتاج البيانات النصية المعقدة في مرحلة الأداء، وإعادة إنتاجها بالفهم في مرحلة التلقي"(١)، فهو يعمد إلى تشكيل تكوينات سيميولوجية من خلال مجموعة من الشفرات الخاصة، تمتح دلالتها من السياق الثقافي الذي يجعل من ارتباط العلامة بمدلول مباشر غير ذات قيمة حقيقية بقدر ما هو من الأهمية بمكان دورانها في مجال دلالي واحد، ومن ثم فإن عملية الاستدعاء لكل ما يتصل بهذا المجال من شأنها أن توضح تجليات المعنى الكامن خلف بنية النص السطحية، فالمعول هنا ليس ارتباطًا شرطيًّا بين دال ومدلول؛ وإنما" دور المقام أو السياق غير اللغوي في التواصل الإنساني..ومن يشاركون في الاتصال اللغوي، وبيئة الحدث الزمانية والمكانية، وقدرة السامع على الكشف عن مقاصد المتكلم واستجابته لها، وما يستلزمه التواصل من معان مقامية لا تستطيع النظريات الشكلية الكشف عنها أو تحليلها"(٢).

فإيزابيلا سيمورا تظهر في النص في وحدتين منفصلتين؛ الوحدة الأولى- متعينة بالفصل الثاني من فصول الرواية- وينتقل فيها الكاتب سرديًّا بين مرحلتين؛ هما: مرحلة الفتح العربي الإسلامي للأندلس، وسقوط الأندلس. والوحدة الأخرى- متعينة بالفصل قبل الأخير من الرواية- ويجسد فيها تقاطعات مرحلة

(١) ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٢م، ص ٢٥٠

(٢) ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديد في البحث اللغوي المعاصر، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية،٢٠٠٦م،٥٨،٥٧

ما قبل الفتح وما بعدها. وفي كل الحالات يتبع الكاتب آلية الأسهم المتحركة؛ فالوصول إلى الدلالة في كل مرحلة أشبه ما يكون بلعبة من ألعاب الكمبيوتر نجتاز فيها عدة مراحل لنصل إلى الجائزة التي نفتح لنا بابًا من أبواب الدلالة، يفضي بدوره إلى غيره، وهكذا حتى ننسج خيوط الشبكة الدلالية خيطًا خيطًا. ففي الظهور الأول لإيزابيلا سيمورا يحدد الكاتب للمتلقي المسار الدلالي مطلقًا جرس التنبيه أو إشارة البدء قائلاً إن لقاء البطل بإيزابيلا كان في ركن الخطباء في حديقة هايد بارك[١]، لافتًا نظر المتلقي إلى أن ثمة دلالة خفية تتصاحب وذلك الركن الخفي الذي حدث فيه لقاؤهما؛ وذلك وفقًا للدلالة المعجمية للتركيب الإنجليزي. ومن جرس التنبيه هذا أو لنقل إشارة البدء في لعبة الوصول إلى المدلول تتحرك دوال نصية أخرى؛ فالبطل وإيزابيلا يستمعان إلى"**خطيب من جزر الهند الغربية يتحدث عن مشكلة الملونين**"[٢]؛ فالعلامة هنا " كيانًا ثلاثيًا تتفاعل داخله العناصر التركيبية والدلالية والتداولية ضمن سيرورة مستمرة"[٣]، فهي من الناحية التركيبية تشير إلى التفرقة العنصرية والتمييز بين الأجناس البشرية، ومن الناحية الدلالية ينفتح المعنى على التمازج بين الأصول الأوربية والعربية الإفريقية؛ حيث إن جزر الهند الغربية اكتشفها الإسبان، وقطنتها سلالات أوربية بدءًا، ثم استوطنها أصحاب البشرة السمراء المنحدرون من أصول إفريقية[٤]؛

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ٣٦

(٢) نفسه، ص ٣٦

(٣) عبد القادر عواد، آليات التداولية في الخطاب، الخطاب الأدبي نموذجا، مجلة علامات، ج٤، مج١٩، شعبان ١٤٣٢هـ- يولية ٢٠١١، ص ٤٧.

(٤) ينظر:

Tony Martin,Caribrean history:from pre-colonial origins to the present, .International Journal of Humanities and Social Science · July 2014

فكان المزيج (الإسبان– العرب) بانفتاحه تداوليًّا على قارئ مقصود ذي مخيلة وتاريخ جمعي؛ يستدعي حضورًا في ذهن القارئ لما كان من انصهار العنصرين الإسباني والعربي في مرحلة تاريخية مائزة، هي مرحلة الفتح العربي للأندلس. فالأيقونة/الرمز هنا في حالة توازٍ مع المدلول، فكأن جزر الهند الغربية في العصر الحديث بما تشهده من اختلاط للأصول الإسبانية والأوربية والعربية معادل موضوعي لما كان في العصور الوسطى من اشتراك الهويات بين العرب والإسبان؛ وذلك في تأكيد للسيرورة التاريخية وتأصيلاً لفكرة الكاتب التي يتتبع شواهدها من الحديث إلى القديم، كما سبق وفعل في تقدمته لشخصية آن همند.

وبعد أن يضع الطيب في صدارة المشهد اللوحة الحديثة بإجمالها؛ ينسج من بطون التاريخ ظلالها، محركًا دواله بحنكة ومهارة؛ "**سألتني (إيزابيلا): ما جنسك؟.. قلت لها: أنا كعطيل.. عربي إفريقي**"[1]، فالدال هنا لاينفتح فحسب تركيبيًّا على شخصية عطيل أصوله العربية (مغربي)، بل هو متماس مع نقطتي البداية والنهاية من الخط الدلالي.

فمن حيث البداية ينفتح دلاليًّا على علاقة الحب والزواج بين عطيل وزوجته ديدمونة ذات الأصول الأوربية وما يعادلها في الفضاء النصي من علاقة الامتزاج بين العرب برمزية مصطفى سعيد والإسبان/ الأوربيين برمزية إيزابيلا سيمورا في مرحلة الفتح العربي للأندلس. ومن حيث النهاية فهو معين لحالة الفقد/سقوط الأندلس؛ فوصف عطيل لنفسه –وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد خنقه لديدمونة– بقوله" رجل لم يعقل في حبه، ولكنه أسرف فيه،.. رجل رمى بيده (كهندي غبي جاهل) لؤلؤة أثمن من عشيرته كلها، رجل إذا انفعل درَّت عينه،وإن

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ٣٧

لم يكن الذرف دأبها دموعًا سراعًا كما تدر أجار العرب صمغها الشافي"[١]؛ يتقاطع وإحساس العار والتفريط في نفس العربي (الأمير أبو عبد الله محمد الحادي عشر) عند تسليمه مفاتيح غرناطة الذي أودعته أمه في مقولتها الشهيرة إليه" ابك مثل النساء ملكًا لم تحافظ عليه كالرجال"[٢].

وهي المرحلة التي جسد أسبابها ودوافعها ونتائجها النموذج العاملي للشخصيات؛ فإن علاقة الرغبة بين العاملين (البطل وإيزابيلا) بصورة الشغف في نفس إيزابيلا لكل ما هو عربي الملامح، الطابع الإفريقي، الآثار العربية (النيل) التي نراها في قوله " **لمعت عيناها، وصاحت في نشوة: نايل؟**"[٣]؛ لها تداعياتها على مستوى الوظيفة؛ ففضلاً عما تحمله من قيم ثقافية؛ فإنها تحدد ملامح الجانب النفسي للشخصية بما يدعم التوجه الفكري العام للنص؛ فهي وإن أشارت في شق لترحاب أهل الأندلس بالفتح العربي واستقبالهم المسلمين استقبال الفاتحين(٤)، فإنها ومن جانب آخر أبرزت أن من أوائل أسباب فتح العرب للأندلس رغبتهم في نشر الإسلام في قطعة من أوربا، وهي الرغبة التي برزت في قول مصطفى سعيد" **وشممت رائحة جسدها، تلك الرائحة التي استقبلتني**

(١) جبرا إبراهيم جبرا، المآسي الكبرى لوليم شكسبير (هاملت، الملك لير، عطيل، ماكبث)، مع دراسات نقدية، المؤسسة العربية، بيروت، الطبعة العربية الثانية، ٢٠٠٠م، ص ٦٠٢.

(٢) ينظر:عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢- ٨٩٧هـ) (٧١١- ١٤٩٢م)، دار القلم، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٠٨، ص٥٥١-٥٥٤

(٣) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ٣٦

(٤) نفسه، ص ٤٥، وينظر كذلك، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي إلى سقوط الخلافة بقرطبة، دار المعارف، لبنان، ص٢٥

بها مسز روبنسون على رصيف محطة القاهرة (رائحة أوربية)"[١]، بل إنها كانت" **ظمأ جنوبي تبدد في شعاب التاريخ في الشمال**"[٢].

ومن حيث النهاية، يعمد الكاتب من خلال نقلة سردية غير محسوسة إلى الانفتاح على كون دلالي مغايرة أبعاده ووظائفه بواسطة تيمة دلالية لها أبعادها المعرفية لدى مبدع النص ومتلقيه؛ مما يفسح المجال لعملية التأويل التي تتخذ من السياق المعرفي والثقافي تكأة لها" فتأويل النص من جانب القارئ لا يعتمد فحسب على استرجاع البيانات الدلالية التي يتضمنها النص، بل يقتضي إدخال عناصر القراءة التي يملكها المتلقي، داخل ما يسمى كفاءة النص أو إنجازه"[٣]؛ ومن ثم فإن لفظة "مفتاح"، وتصاحبها مع معاني الضياع والألم في حيز مأساة (عربية إسلامية) في قوله" **وأدرت مفتاح الباب بعد شهر من حمى الرغبة، وهي إلى جانبي أندلس خصب،.. ونحن في قمة المأساة صرخت بصوت ضعيف: "لا.لا". هذا لا يجديك نفعا الآن، لقد ضاعت اللحظة الأخيرة حين كان بوسعك الامتناع عن اتخاذ الخطوة الأولى**"[٤]؛ تخاطب الخلفية التاريخية للمتلقي العربي، وتتعداها في حيز سيرورة التأويل إلى رسم ملامح الحدث التي بدورها تميط اللثام عن النسق لسيميولوجي الذي ينتظم الدوال كافة. ودالة اللغة هنا ليس لها وظائف التنبيه والاستقبال فحسب، وإنما تتعدى ذلك إلى وظيفة التمثل للنص وإفراز أثر معرفي في ذهن المتلقي[٥]؛ حيث ترتبط بصورة تمتثلية تمتح دلالتها

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ٣٦

(٢) نفسه، ص ٤١

(٣) ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٢م، ص ٢٦١

(٤) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ٤٢

(٥) ينظر:جمال الدين الخضور، قمصان الزمن" فضاءات حراك الزمن في النص الشعري العربي: دراسة نقدية، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠م، ص٧٢.

من التوضع السيكولوجي للعاملين طرفي العلاقة " **وكنت أعلم أن الطريق القصير الذي سرناه معا إل غرفة النوم؛ كان بالنسبة إليها طريقا مضيئًا، يعبق بعبير التسامح والمحبة، وكان بالنسبة لي الخطوة الأخيرة قبل الوصول إلى قمة الأنانية**"[١]؛ فالحدث ما هو إلا إشارة لما كان من قبول الأندلسيين وتيسيرهم الطريق للعرب المسلمين، وبالمقابل جرثومة التملك، وفعل التخلي من قبل العربي.

وقد حدد المنطلق الشعوري والرؤيوي الدور الوظيفي للشخصيتين الحكائيتين الذي تتوزع حسبه الأعمال الجزئية بين طرفي الصراع والنصر، حيث ترتبط وظيفة الصراع بشكل الألم ومحاولة الرفض والتراجع لدى إيزابيلا في مقابل بداية العمل المضاد من طرف مصطفى سعيد "**إنني أخذتك على حين غرة، وكان بوسعك أن تقولي"لا". أما الآن فقد جرفك تيار الأحداث، كما يجرف كل إنسان، ولم يعد في مقدورك فعل شيء**"[٢]، وذلك في إشارة واحدة الدلالة كذلك إلى قول نعم في مقدمات الفتح، ثم الشعور بالألم والخذلان لتصامم العرب عن نداءات المحبة التي بعثها الأندلسيون الى حكام العرب في حرب الاسترداد رغبة في استمرارية التمازج العربي الإسباني على أرض الأندلس، ورفضا لفكرة تسليم الأندلس إلى الرومان. هذا بينما تأتي وظيفة النصر في شكل فعل التحقق والوصول إلى موضوع الرغبة، وله هنا ظلال مختلفة لاختلاف أدوار الشخصيتين" **وانفجرت ببكاء ممض محرق، واستسلمت انا إلى نوم متوتر محموم**"[٣].

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ٤٢

(٢) نفسه ، ص ٤٢

(٣) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ٤٢

وقد توزعت هذه الصورة – بتراكماتها الحجمية في العقل العربي ومخيلته– على مرحلتيها المتقاطعة فيهما الأبنية النصية والسياقات التاريخية – مرحلة الفقد/ السقوط بتداعياتها التاريخية والأثر الناجم عنها، وما يقابلها من صورة اللقاء/ الفتح، وذلك عبر "فروض دلالية تعتمد على اللغة، وعلى المعارف العامة المتعلقة بالعالم أو الإطار الذي يتم التعبير فيه"(١). ولعل تكنيك الاسترجاع في قوله: "**ونحن في قمة الألم عبرت برأسي سحائب ذكريات بعيدة قديمة كبخار يصعد من بحيرة مالحة وسط الصحراء**"(٢) – بارتكازه إلى الإشارة التاريخية لموقعة وادي لكة، أولى المعارك التي خاضها المسلمون بقيادة طارق بن زياد في إسبانيا التي دارت بالقرب من بحيرة خاندا Janda ، وهي المعركة التي انتصر فيها المسلمون بقيادة طارق بن زياد انتصارًا ساحقًا؛ أدى إلى سقوط دولة القوط الغربيين؛ ومن ثم سقوط معظم أراضي شبه الجزيرة الأيبيرية تحت سيطرة الخلفاء الأمويين(٣)– كان بمثابة النواة التي خصبت النص ومهدت الطريق إلى سبل المقارنة المانحة للنص معناه ودلالته.

أما عن الظهور الآخر لإيزابيلا سيمور فيصحبه تقدمة للنموذج الغربي مقارنة بالعربي؛ من شأنها أن تبرز رؤية البطل وتوجهه الأيديولوجي "**حين خطا زوجها إلى منصة الشهادة في المحكمة، تعلقت به الأبصار، كان رجلاً نبيل الملامح والخطو، رأسه الأشيب يكلله الوقار، وتجلس على سمته مهابة لا مراء فيها، كان رجلاً لو وُضِعتُ معه في ميزان؛ فإن كفته ترجح كفتي أضعاف**

(١) ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢٦٢

(٢) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ٤٢

(٣) ينظر: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، ص ٧٨–٧٩

أضعاف"[١]. فإن تتبع حركية الرمز (الزوج) ودلالته في هذه التقدمة– انطلاقًا من أن " الرمز المتحرك على سطح دالة اللغة ما هو إلا محاولة لاختراق ما وراء الواقع وصولاً إلى عالم من الأفكار"[٢] – يبرز إشاريته إلى السلطة الحاكمة للأندلس قبل الفتح وبعد السقوط، وهم طبقة النبلاء من الأمراء القوط. وقد تحدد مدلول الإشارة بما صاحبها من وحدات دلالية تمثلت في الصفة الشرعية التي منحها الكاتب للمدلول من خلال وحدة معجمية متحددة الدلالة وهي كونه زوجًا، كذا الديانة المسيحية بوصفها الديانة الرسمية للإسبان قبل الفتح العربي وبعد حرب الاسترداد، إضافة إلى ذلك، جاءت اللغة الوصفية تمتح من المعين الملكي (نبل الملامح والخطو، الوقار، المهابة).

(أ–٢–٢–ب) جين مورس (الاستعمار البريطاني والعولمة الثقافية):

تتوزع الدوال السيميولوجية فيما يتصل بشخصية جين مورس في دوائر السلطة القهرية والسيطرة، ف" **أهلها من ليدرز**"[٣]، وهي قوة بحلفائها" **لها خمسة إخوة**"[٤]، ذائعة الصيت بمن يلتصق بها كالذباب [٥]، وليس لذلك لأصل لها، فقد" **كانت عديمة الأصل**"[٦] كذلك ليس لما لها من فضيلة، فهي "**لا تتورع عن فعل أي شيء تسرق وتكذب وتغش**"[٧]، و"**تحب منظر العنف**"[٨]، وإنما حضورها

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ١٢٧

(٢) تشارلز تشادويك، الرمزية، ص٤٦

(٣) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ١٤٠

(٤) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ١٤٠

(٥) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ١٤٠

(٦) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ١٤٠

(٧) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ١٤٠

(٨) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ١٤٠

حضورها بما يفوح من روائح ماديتها، ف"**كان أبوها تاجرًا**"[١]. إن الدوال بهذا النسق – في احتشادها– ترسم صورة واضحة للدول الاستعمارية رأسماليتها، ووحشيتها.

فجين مورس– في مقابل مسز روبنسن[٢]– هي الوجه المظلم للغرب بماديته وسلطويته وادعاءاته ووحشيته، وبما يفرضه على المجتمعات العربية من إكراهات لمحو ثقافتها موروثاتها وحضارتها لفرض التبعية في إطار فكر العولمة، وهو ما فصلنا القول في مظاهره في موضع سابق من البحث[٣].

تحليل وتعقيب:

لا شك أن ما نجريه من مقاربات تداولية بين النص والسياق التاريخي في هذه الجزئية تشكل جانبًا مهمًا من جوانب الرؤية عبر سيرورة التأويل المتجهة من داخل النص إلى خارجه حيث اعتبارات المقام والسياق وحالة مرسل النص وخلفية متلقيه. ونحدد ملامح هذه الرؤية في الآتي:

١- الشخصيات الغربية الثلاث الأول وظائفها وأدوارها وعواملها وتحركها في إطار حدث يخضع لمبدأ السببية والتتابع والاختيار[٤]؛ جسدت في علاقتها بالبطل لزاويتين من زوايا الصراع الأيديولوجي في النص، وأصابت جانبًا من جوانب الرؤية، **فتحددت رؤية الكاتب والإشكالية الصراعية في النص من طريقة الإخبار عن الشخصية وزاوية الرؤية من قِبل البطل المتشذر**؛ وبدت كل شخصية من الشخصيات الثلاث من خلال صوتين كل منهما يحمل لرؤية مناقضة للآخر، هذان الصوتان هما صوتا البطل المنقسم على

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ١٤٠

(٢) الدراسة، ص: ١٧

(٣) الدراسة، ص: ٩-١١

(٤) ينظر: سيزا قاسم، بناء الرواية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٢٦

ذاته عبر مرحلتين تاريخيتين هما:مرحلة العولمة، ومرحلة ما بعد العولمة؛ حيث يمثل الأولى مصطفى سعيد "**باندفاعه وراء سراب أجنبي**"[١]، بينما يظهر الراوي في حيز الأخرى محاولاً تحقيق المعادلة الصعبة، والمتمثلة في التأكيد على الهوية الجمعية والانتماء المشترك والصلات الممتدة بين الشرق والغرب.

٢-حدد **شكل الخبر ومحتواه** ملامح رؤية الراوي وتوجهه الفكري والشعوري التي أودعها على لسانه في إخباره عن كل شخصية، فالشخصيات الثلاث وإن كانت تلتقي وتتشابك في مجال دلالي واحد – يختلط فيه المعطيان العربي والغربي، بما يجسد فكرة ازدواجية الهوية انطلاقًا من اللبنة الأولى المؤسسة لمفهوم الهوية وهي الشعور بها[٢] – فقد انفرد كل منها بخصوصية الطرح لجانب مقصود يسوغ به الراوي/ الكاتب عملية الاتصال بين الشرق والغرب، ومن هنا **توزعت الرؤية على ثلاثة محاور:**

الأول : موروثات الماضي بوصفها منطلقًا أساسيًّا لتحديد الهوية العربية ليس في كينونتها فحسب، بل بقدرتها على تحديد النظرة إلى العالم" فالهوية تتشكل وتأخذ هيئتها بالاستناد إلى الماضي، ويشكل ذلك الماضي بحد ذاته تاريخ الجماعة والمجتمع..(حيث) يؤكد المجتمع هويته عبر التكامل الزمني، وبالتالي فإن وعي الذات يشتمل على وعي الماضي"[٣]. وهو ما أبرزه الكاتب من خلال شخصية "آن همند" في بعدها التاريخي، حيث جاءت رمزًا حضاريًّا أكد فكرة السيادة العربية في نقطة أولى من نقاط التلاقي الثقافي بين الحضارتين العربية والغربية ؛ مع التأكيد على استمرارية الوجود العربي في بعد الشخصية

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ٣٦

(٢) ينظر: أليكس ميكشيللي، الهوية، ص:١٢

(٣) نفسه،ص:٦٧

المعاصر؛ حيث إن إلحاح الكاتب على تعيين اللغة العربية لغةً للخطاب الموجه من آن إلى البطل من قبيل التأكيد على حضور الهوية الثقافية العربية في أقوى مظاهرها في الحيز الثقافي الغربي"حيث إن من بين كل العناصر التي تحدد ثقافة وهوية ما.. تبقى اللغة من أهم العناصر تحديدًا للانتماء، وهي لا تقل أهمية عن الدين"(١) .

الثاني: تجاوز الخبرات السلبية وتمثل الإيجابية في سبيل الوصول إلى الهوية الناضجة ومن شروطها معرفة الآخر، بما يسهل عملية التكيف والمبادرة، وتحقيق الانسجام والتكامل مع الأنظمة المعرفية والثقافية المعطاة(٢)، وهو ما نبه عليه الكاتب في ثنايا روايته من ضرورة النظرة الموضوعية للوجود الاستعماري" **فمجيئهم لم يكن مأساة كما نصور نحن، ولا نعمة كما يصورون هم**"(٣)، ومن هنا كانت نظرة الراوي للأوربيين نافذة إلى الجوهر الإنساني بما يحفل به من معاني الخير، حيث لا يتوزع معه الإنسان بين قطبي شرق وغرب، وإنما ثمة معين واحد "**إن الأوربيين، إذا استثنينا فوارق ضئيلة، مثلنا تمامًا، يتزوجون، ويربون أولادهم حسب التقاليد والأصول، ولهم أخلاق حسنة، وهم عموما قوم طيبون**"(٤). ومن هنا برزت شخصية شيلا غرينود أيقونةً فكرية رامزة إلى تيار غربي إيجابي استطاع أن يثبت حضوره. وفضلاً عن كون الشخصية رمزًا للفكر الغربي المتحضر المتجاوز لظلمات الماضي والمتصدى لنزعات الفكر العنصري؛ فإن قبول واستيعاب الكاتب لها بوصفها شكلاً من أشكال التطور الجمعي للفكر الإنساني؛ من شأنه أن يمد قنوات الاتصال بين العالمين.

(١) أمين المعلوف، الهويات القاتلة، ص ١١٦

(٢) ينظر: أليكس ميكشيللي، الهوية، ص:١٣٠

(٣) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص:٥٦

(٤) نفسه، ص: ٧

الثالث: ويرتبط بفكرة الانتماء الجمعي في ارتباطها بمسيرة الحضارات وتاريخ الجماعات الإنسانية التي يدعمها في ذلك من غير شك ما قد يكون من تداخل الأصول التاريخية عبر عملية تلاقح الأجناس في مراحل التطور المهمة والممتدة زمنيًا، الأمر الذي يدعم فكرة الهوية المشتركة الجمعية التي تعد "ضرورة من ضرورات التطور والاتصال وحقائق الحياة لاجتماعية وتاريخ تطور الجماعات والحضارات،...وهي سابقة في الوجود للهوية الفردية أو الأنا الفردية"(١). وهو ما جسده الراوي في شخصية إيزابيلا سيمورا، فما كان من امتزاج الجنسين العربي والإسباني تكأة أصولية تدعم فكرة الجسر الذي يبغي الراوي مده من الجنوب إلى الشمال الذي جسده في الحوار الدائر بين إيزابيلا والبطل" **هل تدري أن أمي إسبانية؟ هذا إذن يفسر كل شيء – يفسر كل شيء – يفسر لقاءنا صدفة، وتفاهمنا تلقائيا، كأننا تعرفنا منذ قرون. لابد أن جدي كان جنديًا في جيش طارق بن زياد. ولابد أنه قابل جدتك وهي تجني العنب في إشبيلية. ولابد أنه أحبها من أول نظرة، وهي أيضا أحبته. وعاش معها فترة ثم تركها وذهب إلى أفريقيا، وأنت جئت من سلالته في إسبانيا**"(٢). هذا ولا يفتأ الراوي في إخباره عن شخصية إيزابيلا سيمورا التأكيد على تجاوز العرض/ الأنا الفردية والنظر إلى الأصل الواحد المشترك – بوصفه لحمة الهوية الجمعية وسداها – تماسًا مع معاني المحبة والطيبة والتسامح(٣).

٣–اتصال مصطفى سعيد وجين بإطارية الزواج مع تفريغه من انسجاميته، فقد" **كانت لحظات النشوة نادرة بالفعل، وبقية الوقت نقضيه في حرب**

(١) أليكس ميكشيللي، الهوية، ص:١٠٥، ١٠٦

(٢) الطيب صالح، موسم الهجرة: ص: ٤١

(٣) ينظر: الرواية، ص: ٤٢

ضـروس"[١]، يوقفنـا علـى إيديولوجيتـه، ومـا يطـرأ عليهـا مـن تغييـر عبـر مستويات الحدث. فإذا كان زواجه من جين يقيمه كيانًا منصهرا في الغرب الاستعماري رؤيته الأحادية وإكراهاته القسرية – بسلاحي الجنس والعنف – لكـل مـن يحمـل جرثومـة المـرض– ورد هـذا التعبيـر لصـيقًا بالشخصـيات الثلاث[٢]– ممثلة في مصادر الهوية العربية، وكتنت نهاية الفتيات الثلاث (آن– شيلا– إيزابيلا) بالانتحار يتلازم معنويًّا مع حالة من حالات الفشل وانعدام القدرة على التكيف؛ ويعادل على مستوى الرؤية فكرة مصطفى سعيد – بوصفه ممثلاً لأقبح وجوه الغرب وهو الغرب المستعمر؛ فإن تحرك دالة "القتل" في العلاقة بين مصطفى سعيد وجين يمثل لنقطة التحول، حيث تحولت علاقة الرغبة إلى علاقة صراعية من عربي تحوَّل بوجهته– رغبة – إلى ساحل به هلاكه"**وجين مورس هي ساحل الهلاك**"[٣]، ثم ارتد حينما لم يجد بين أحضانها إلا الذل والضياع، وكان قتلها بسبب احتقارها المستمر له، مما يرشح دالة جين/ المستعمِر[٤]، فشعوره بالدونية جعله يصرخ في وجه جين"**أنا أكرهك، أقسم أنني سأقتلك يومًا**"[٥] . ومن هنا كان الصراع/ القتل المحدد لنهاية جين مورس مؤذنًا بالانعتاق والتحرر من التبعية الغربية ، وكان موت مصطفى سعيد عقب هذه الحادثة –بحسب خطاطة الوحدات الحكائية في نص الحكاية والنظام الزمني المتبع فيها– ممثل لفكرة الانتقام،

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ١٤٤

(٢) ينظر الرواية، ص:٣٣، ٣٤، ٣٨

(٣) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ١٤٤

(٤) ينظر: فرانز فانون، معذبو الأرض، نقله إلى العربية: سامي الدروبي، وجمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر– القاهرة، ٢٠١٥م، ص ٤٣–٤٤

(٥) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ١٤٣

فالنهر الذي شق الأرض السودانية واهبًا إياها الحياة أبى إلا أن يفيض فيواري هذا المصطفى سعيد بالغرق دون أن يسمح لجثته بالظهور، ف" **جثمانه قد استقر في بطون التماسيح التي يغص بها الماء في هذه المنطقة**"(١).

٢- الهوية المزدوجة/الجمعية فكرتها، وآليات تشكيلها:

(٢-١) الهوية الجمعية، رؤية المثقف في مرحلة ما بعد الاستعمار:

وإذا كانت الفترة التي قضاها البطل في طوره الأول- مصطفى سعيد في الغرب- قد جسدت فكر العولمة وتوجهاتها الأيديولوجية في مرحلة الكولونيالية؛ فإن عودة البطل إلى الأرض السودانية وزواجه واستقراره فيها إنما هو إعادة تشكيل لتوجهات المثقف في مرحلة ما بعد الكولونيالية، حيث أدرك الأكذوبة التي طالما التصقت عند البطل بمرحلة تغييبه عن ثقافته وسعيه وراء سراب أجنبي، بل إنه يطالب بإنهائها في قاعة المحكمة " **هذا المصطفى سعيد لا وجود له. إنه وهم. اكذوبة. وإنني أطلب منكم أن تحكموا بقتل الاكذوبة**"(٢).

واستنادًا إلى هذا الأساس تبرز محاكمة مصطفى سعيد دالاً ينفتح على دلالة أكثر عمقًا من معطياته الحدثية، فهو محاكمة لموقف المثقف العربي المستعمَر من عالمي الغرب والشرق، الأول بنزوعه الفكري الأيديولوجي المتأصل من سياسة التطبيع التي طالما مارسها المستعمِر على الدول المستعمرة وامتد في إطار مرحلة العولمة، والآخر بأصوله وثقافته. والإشكالية في إمكانية التوسط بين العالمين، وهو ما عجز عنه البطل في طوره الأول الذي يمثل للانفتاح الكامل، الذي لا يعني فقط التماهي مع المعطى الغربي، بل رفضه واستئصاله لكل ما هو

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص ٤٤

(٢) الطيب صالح، موسم الهجرة: ص: ٣٢

شرقي، كما فشل في تحقيقه كذلك في طوره الثاني؛ حيث محاولة التغيير داخل حدود المجتمع السوداني التي توزعت في ضوئها لفظة " "اليسار" إشارةً سيميائية بين عدد من النصوص الواصفة لملامح البطل في هذا الطور؛ فـــ "**رأسه يميل إلى اليسار قليلا**"(١)، واليسار بإشاريته السياسية إنما يرمز إلى تحول الاتجاه الفكري للراوي بأثر من حضارة وثقافة الغرب، وهو ما برز على نحو أكثر وضوحًا في إشاريته إلى الغرفة الأوربية في منزل مصطفى سعيد" **ونظرت برهة إلى اليسار إلى الغرفة المستطيلة من الطوب الأحمر، لا كالمقبرة، ولكن كسفينة ألقت مراسيها في عرض البحر، إنما الوقت لم يحن بعد**"(٢). والنص الأخير لا يبرز اليسار بوصفه إشارة سيميائية ذات حمولة أيديولوجية، تشير إلى تيار فكري ساعٍ إلى التغيير بالانفتاح على ثقافة الغرب فحسب؛ وإنما كذلك يبرز الإشكالية التي يواجهها هذا الفكر بين طرفي الذوبان والانغلاق، كذلك منطلقات هذا التغيير ومساراته، فضلاً عن هذا وذاك يلقي النص بالضوء على دور البطل في هذا الطور بوصفه رمزًا لثقافة الغرب التي خلفها الاستعمار الذي برز في مساعيه التقدمية والإصلاحية(٣).

(٢-٢) آليات التشكيل؛ سيميائية الدلالة، وبلاغات السرد:

(٢-٢-أ) الشخصيات، دال لساني، وخطاطة سردية:

(أ – ١) حسنة (الأرض السودانية / امتزاج الأصل العربي والثقافة الغربية):

تظهر **حسنة** في هذا الطور رمزًا للأرض السودانية المختلطة القسمات، فالأصل عربي والثقافة غربية، فقد بدت" **امرأة نبيلة الوقفة. أجنبية الحسن**"(٤)،

(١) نفسه، ص: ١٣

(٢) نفسه، ص: ٨١

(٣) ينظر: الطيب صالح، موسم الهجرة: ص: ١٤

(٤) نفسه، ص: ٨٢

وقد حدث التجانس– في مرحلة من مراحل الضعف التي شهدتها الأراضي العربية والسودانية– ممثلًا في زواج مصطفى سعيد بحسنة بنت محمود، فقد "**جاء (مصطفى سعيد) إلى البلد منذ نحو خمسة أعوام، واشترى أرضًا تفرق وارثوها، ولم تبق منهم إلا امرأة، فأغراها الرجل بالمال واشتراها منها، ثم قبل أربعة أعوام زوّجه محمود إحدى بناته..أظنها حسنة**"(١).

والنص زاخر بالإشارات التي عينت مدلول الكلام، التي خاطبت بدورها متلقيًا مقصودًا، استطاع أن يصل إلى مقصدية النص بما أتيح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال(٢)؛ مما حقق الاستلزام الحواري في إطار السياق التداولي، فتوزعت الدوال في النص على المدلولات، فكانت دالة الأرض إشارية للأراضي العربية في ظل فرقة حكامها(تفرق وارثوها)، وضعفهم (لم تبق منهم إلا امراة)، فضلاً عن حادثة الزواج المبرزة للبعد الاجتماعي في صورته الإيجابية، حيث علاقة العطاء بين الطرفين على المستوى الثقافي في ظل مرحلة الاستعمار، وهي الصورة التي أكدها السارد بما أردفه من تعليق سردي على قول الجد بشأن زواج مصطفى من حسنة" **تلك القبيلة لا يبالون لمن يزوجون بناتهم. ولكنه أردف، كأنه يعتذر، أن مصطفى طول إقامته، لم يبدُ منه شيء منفر**"(٣). فالتعليق السردي– على إيجازه– مجسد لأغراضية النص وحامل لرؤية كاتبه التي تبرز أن الصورة الاستعمارية لم تكن في كل حين ذات ظلال قاتمة، وهو ما أفصح عنه الراوي على لسان محجوب بوصفه نموذج الشخصية الوحيدة المساعدة للراوي في أيديولوجيته الساعية للتغيير، فمحجوب يصرح أن مصطفى

(١) نفسه، ص: ٩،١٠

(٢) محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص:٣٣

(٣) الطيب صالح، موسم الهجرة: ص: ١٠

سعيد/ الاستعمار كانت له أيادٍ بيضاء غير منكورة، ورحيله/ موت مصطفى سعيد" **كان خسارة لا تعوض**"[١] .

وتفصح **البلاغات السردية** في هذا الطور عن الإشكالية الصراعية بتعدديتها وتعقداتها، فبينما تتجسد حسنة موضوعًا في الحكي يسعى إليه– في إطار علاقة الرغبة– بطلان، أحدهما مصطفى سعيد ممثل الاستعمار الأجنبي الذي تزوجته وأنجبت منه، ثم غادرها بالموت أو الهجرة إلى الشمال في إشارة إلى خروج الاستعمار، والآخر **ود الريس** –ممثل الإرث السوداني برجعيته وعاداته البالية– يخرج الكلمات الخبيثة من بين شدقيه، ويسيطر عليه الجانب البوهيمي يوجهه دون ضابط عقلي أو إنساني [٢]، وهو يرغب في إعادة حسنة/ الأرض إلى إسار التخلف مرة أخرى بسعيه للزواج منها مؤذنًا لرحى التحجر والجمود أن تواصل دورانها بعد انقطاع [٣].

وفي إشكالية سردية تبدو علاقة الرغبة بين الذات (مصطفى/ الاستعمار)، والموضوع (حسنة/ الأرض) مزدوجة الاتجاه ، كذا العلاقة بين ود الريس وحسنة؛ حيث تُتبادل الأدوار مع تغير الوظيفة، ومن ثم البلاغ السردي المتضمن فيها، فحسنة – وإن شكلت الموضوع في إطار سعي مصطفى سعيد (الذات) إليها– تتبادل المواقع في العلاقة نفسها في قبولها مصطفى سعيد وحزنها على رحيله " **بعد مصطفى سعيد لا أدخل على رجل**"[٤]، كذلك تبدو علاقة الرغبة في سعيها إلى الصورة المستنسخة منه ممثلة في (الراوي) –"**جاءتني البيت مع شروق**

(١) نفسه، ص: ٩٢

(٢) ينظر: الرواية ، ص: ٧٢

(٣) ينظر: نفسه، ص: ٧٩

(٤) نفسه، ص: ٨٨

الشمس، قالت تخلصها من ود الريس، فقط تعقد عليها"[١]. وحسنة برفضها ود الريس، تتخذ مكانها في وضعية صراعية (علاقة الصراع بين حسنة /الأرض ، وود الريس /العقم الفكري)" **إذا أجبروني على الزواج، فإنني سأقتله وأقتل نفسي**"[٢].

وبينما تبرز وظيفة الصراع مرتبطة بالعمل المضاد (قتل حسنة لود الريس) سبيلاً من سبل مقاومة قوى التخلف والتحجر التي تحول دون بلوغ الغاية المرجوة متمثلة في التقدم والانفتاح الثقافي على المعارف الحديثة، تختفي العلاقة الصراعية على مستوى البلاغات السردية؛ حيث تأتي الشخصيات الثانوية في هذه الوحدة الحكائية (الأب– بكري– بنت مجذوب) معارضة لرغبة الذات (حسنة)، في تأكيد لاستشراء الفساد المجتمعي الذي يعرضه الكاتب جنبًا إلى جنب مع الفساد لسياسي للحكومة السودانية التي هي وجه من وجوه الاستعمار غير المعلن، "**فسادة أفريقيا – مع عدم وجود المدارس– يتدارسون في مصير التعليم في قاعة الاستقلال التي بنيت لهذا الغرض، وكلفت أكثر من مليون جنيه**"[٣]، فهؤلاء السادة جميعًا من رئيس الوزراء ونوابه ومن هو دونهم الذين كونوا ثروة فادحة من قطرات العرق التي تنضح على جباه المستضعفين امتداد لمصطفى سعيد، ولو أنه عاد عودة طبيعية لانضم إلى قطيع الذئاب هذا. كلهم يشبهونه، وجوه وسيمة، ووجوه وسمتها النعمة"[٤].

(١) نفسه، ص: ١٢٠

(٢) نفسه، ص: ٨٨

(٣) نفسه، ص: ١٠٩

(٤) بتصرف، الطيب صالح، موسم الهجرة: ص: ١٠٩، ١١٠

(أ-٢) شخصية الجد (الأصل العربي)

الدوال في النص ما هي إلا رموز دالة على الانتماء الإثني والفكري والاجتماعي- وفق باختينMikhail Bakhtin -؛ ومن ثم يميز الكاتب منذ البداية بين الأصل/ الجذر، والعادات والتقاليد او الثقافة السائدة، فيبرز نموذج الجد رمزًا ذهنيًا لفكرة الأصل، فهو صامد رغم الدهر" **تسعون عامًا وقامته منتصبة، ونظره حاد، كل سن في فمه، ذاك رجل أعجوبة** "[١]. وهو في هذا يمثل الأمان من فكرة ضياع الهوية وانطماسها "**وأذهب إلى جدي، فيقوي إحساسي بالأمن**"[٢].

(أ-٣) شخصية الراوي (تحولات النظرة/ وسطية الاتجاه/شمولية الرؤية):

يمثل **الراوي** – حسب مانهايم Karle Mannhim- نموذج المثقف، فهو" ذلك الإنسان الأعلى الذي يستطيع وحده أن يصل إلى المعرفة الموضوعية، والتعالي على المصالح الخاصة بهذه الطبقة أو الفئة أو تلك، وأن يأخذ بينها موقفًا وسطًا هو موقف الحقيقة..والإنتلجنسيا مؤهلة لهذا الوعي الشمولي التركيبي؛ فهي طبقة تشكل ملتقى الأيديولوجيات الاجتماعية؛ مما يسمح لأفرادها بامتلاك حرية أكبر للتأمل الموضوعي في الأيديولوجيات"[٣] .

فالراوي منذ البداية تتشكل ملامحه – بوصفه ممثلاً للمرحلة الثانية من مراحل حياة البطل المتشظي، فهما واحد منقسم على ذاته، قدّم صورة لتشظي الذات العربية في مرحلتين تاريخيتين، فالبطل والراوي وإن اختلفا في المعرفة والرؤية ؛ فقد التبسا في الشخصية، من حيث كونهما صنوين من جذر واحد

(١) نفسه، ص: ١٢

(٢) نفسه، ص: ٩

(٣) بتصرف: حميد لحمداني، النقد الروائي والأيديولوجيا، ص:٢٠-٢١، وينظر كذلك: جورج الطرابيشي، الماركسية والأيديولوجيا، ص: ١٩٥

شكلا معا صورة البطولة في الرواية. وصوت الراوي يطالعنا منذ أول وهلة محددًا طبيعة العلاقة بينه وبين مصطفى سعيد، فهما مرحلتان من الغياب والحضور، من الوضوح والضبابية، من العلم والتخبط، وهما قصتان في قصة وشخصان في شخص، "**عدت إلى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة، سبعة أعوام على وجه التحديد، كنت خلالها أتعلم في أوربا. تعلمت الكثير، وغاب عني الكثير، لكن تلك قصة أخرى**"(١). فبالرغم من أن الراوي يباشر السرد بضمير المتكلم في عهد بالحكاية الأولى إلى نفسه(عودته بعد الغياب)؛ فإن توزع الدوال اللغوية بين قسمي الذات عين طبيعة الصراع الأيديولوجي، ففضلاً عن أن مؤشرات النص تتحرك ليقترن بفعلي الغياب فالعودة حدث التعلم وما يرتبط به من وضوح الرؤية؛ تبرز على سطح النص شفرة أخرى على مستويات غياب العلم، وضبابية الرؤية، تتحرك في مجال "قصة أخرى"، يعهد المؤلف فيها بفعل الحكي لبطله مصطفى سعيد الراوي الثاني والممثل لمرحلة الظلام، حيث غياب الرؤية وضبابيتها.

واستنادًا إلى هذا الأساس تتحدد الرؤية من الإشكالية الصراعية بين الراوي ومصطفى سعيد، فهما وجهان متصارعان، فمصطفى سعيد للراوي غريمه، وإن كان صورته الأولى " **وخرج من الظلام وجه عابس.. وخطوت نحوه في حقد. إنه غريمي.. مصطفى سعيد. صارت للوجه رقبة...ووجدتني أقف أمام نفسي وجها لوجه. هذا ليس مصطفى سعيد. إنها صورتي تعبس في وجهي من مرآة**"(٢). ويأتي الكاتب في هذا الصدد بعدد من الإشارات السيميولوجية ينتظمها خيط دلالي واحد من شأنه تحديد معالم فكر هذا المصطفى سعيد بوصفه معادلاً موضوعيًّا للفكر الغربي الاستعماري بأفكاره العنصرية وممارساته الوحشية،

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص:١.

(٢) نفسه، ص ١٢٢

فـ "بروسبرو وكالبان"[١] دالة سيميولوجية تفتح أفق المتلقي قضية العنصرية محددة بالرؤية الفكرية لأوكتاف مانوني – أحد الكتاب الفرنسيين– في كتابه" بروسبرو وكالبان: سيكولوجيا الاستعمار"[٢]، والذي يرى فيه أن" الأسود ليست لـه ثقافة ولا حضارة، ولا هذا الماضي التاريخي الطويل"[٣] ، وأن " الزنجي عبدٌ لدونيته، والأبيض عبدٌ لتفوقه"[٤]. كذلك في إشاريته إلى كتاب الطوطم والتابو لسيجموند فرويد[٥]، حيث يؤصل قانون التابو الطبقي للتمايز الاجتماعي ومن ثم العنصري، كذلك القسوة والممارسات الوحشية أو ما أسماه" كبت الرافع" سبيل التقدم الحضاري[٦].

على صعيد آخر يرسخ الراوي/الوجه الآخر لمصطفى سعيد فكرة تمسكه بالجذور مع الوعي بالمتطلب الحضاري، فتتحرك الدوال مؤكدة اختلاف الراوي عن قومه في العادات البدائية التي كان يدين بها المجتمع السوداني [٧] . كذلك

(١) بروسبرو وكالبان شخصيتان في مسرحية العاصفة لشكسبير، يمثل الأولى(بروسبرو) دوق ميلانو الشرعي، بينما الأخرى كالبان) عبد أسود مشوه شرس، ويعاني كالبان الأسود من عقدة اضطهاد الرجل الأبيض(بروسبرو) له. ينظر: وليم شكسبير، العاصفة، تعريب: أ.ر مشاطي، إشراف:نظير عبود، دار نظير عبود، بيروت، لبنان، د.ت. والنص من الرواية ، ص ١٢٤

(٢) فرانز فانون،" بشرة سوداء وأقنعة بيضاء" تعريب: خليل أحمد خليل، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

(٣) فرانز فانون،" بشرة سوداء وأقنعة بيضاء" ص ٣٧

(٤) نفسه، ص ٣٧

(٥) سيغموند فرويد، الطوطم والتابو، ترجمة:بو علي ياسين، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م. والنص من الرواية: ص ١٢٤

(٦) ينظر: سيغموند فرويد، الطوطم والتابو، المقالة الثالثة، ص ١٢٠

(٧) ينظر: الرواية، ص: ٧٣

تتجلى رؤية الراوي الفكرية والأيديولوجية للمجتمع السوداني في مرحلة ما بعد الكولونيالية ، حينما يرى الفلاحين بهتافاتهم الفارغة لحكامٍ عبيد لمناصبهم التي ولاهم إياها الإنجليز الذين لا زالوا يتملكون مقاليد البلاد من خلالهم، فإذا باستعمار جديد تحت رداء القومية [١].

كل هذه الأيديولوجيات التي يقدمها الراوي بدءًا بعولمة مصطفى سعيد، وبراغماتية الحكومة، وتقولب المجتمع السوداني في قوالب العقم الفكري، والوعي السلبي للفئة المثقفة؛ إنما يطرح من خلالها رؤيته للعالم، وهي رؤية شمولية "تنظر إلى الأيديولوجيات جميعها باعتبارها موضوعًا قابلاً للتأمل والمقارنة واستخراج الخصائص"[٢]، وهي في نفس الوقت رؤية ناقدة للأيدولوجيات ذات النزعة البراغماتية، تلك التي لا تعترف للأيديولوجيات الأخرى بأية مزايا [٣]، وهي الرؤية نفسها التي تهدف إلى التوسط حيث الانفتاح مع ضرورة التمسك بالأصول" **إنني من هنا.. لقد عشت أيضا معهم، ولكنني عشت معهم على السطح، لا أحبهم ولا أكرههم. كنت أطوي ضلوعي على هذه القرية الصغيرة، أراها بعين خيالي أينما التفت.. هناك مثل هنا، ليس أحسن ولا أسوأ، ولكنني من هنا، كما أن النخلة القائمة في فناء دارنا تنبت في دارنا، لم تنبت في دار غيرها، وكونهم جاءوا إلى ديارنا لا أدري لماذا، فهل معنى ذلك أننا نسمم حاضرنا ومستقبلنا؟ إنهم سيخرجون من بلاد كثيرة. سكك الحديد، والبواخر، والمستشفيات، والمصانع، والمدارس، ستكون لنا، وسنتحدث لغتهم، دون إحساس بالذنب ولا إحساس بالجميل، سنكون كما نحن**"[٤]. آثرت أن أورد

(١) ينظر: الرواية، ص: ٦٠

(٢) حميد لحمداني، الرواية والأيديولوجيا، ص:٢١

(٣) نفسه: ص: ٢١

(٤) نفسه، ص:٤٦، ٤٧

النص كاملاً لأنه يحمل رؤية النص الكلية، التي نستطيع من خلالها الوصول إلى العمق الدلالي لقصة حياة مصطفى سعيد، فوضع الأيديولوحيتين بإزاء بعضهما البعض يبرز إشكالية الرواية الفكرية بما تحمله من صراع الأيديولوجيات من ناحية، وما تتبناه من رؤية تأملية للعالم تتسم بالاتساع والشمولية، هذا وإن "الأيديولوجيات لا تبلغ هذا المستوى من الحوارية الداخلية مع نفسها ومع غيرها من الأيديولوجيات؛ إلا إذا استطاعت أن تتحرر من الجذب السياسي ومن القصد النفعي"(١).

وختامًا فإن الدال اللساني بطاقاته السيميولوجية الممتدة عبر النص لها دوره الجلي تعيين الدلالة وتحديد المنظور الفكري للمثقف العربي، فمنذ الصفحات الأولى يجدل الكاتب دواله ليضفر نهايتها بختام الرواية. فدالة الماء على لسان الراوي في أولى صفحات الرواية، لها حضورها الحسي وطاقاتها السيميولوجية ومساحاتها الدلالية في الرواية بأكملها، فهي بانفتاحها على معاني التجدد والخصوبة والنماء ترتبط في نص الرواية بالشمال/ الغرب؛ حيث الماء رمز الحياة واستمرارية الوجود، " قال رتشارد" **كل هذا يدل على أنكم لا تستطيعون الحياة بدوننا،.. يبدو أن وجودنا – بشكل واضح أو مستتر– ضروري لكم كالماء والهواء**"(٢). وإذا كان الفكر الصوفي على سبيل المثال وظف دالة الماء بوصفها معادلاً للمعرفة والعلم الإلهيين، فالكاتب غير بعيد عن هذا المدلول، فالغرب بالنسبة للقرية السودانية ولدول العالم الثالث في مرحلة ما بعد الكولونيالية سر الحياة المتدفقة إلى الأمام بالعلم والمعرفة.

(١) حميد لحمداني، الرواية والأيديولوجيا، ص:١٩

(٢) نفسه، ص:٥٦

والدالة كذلك في اتصال أيقونة النهر بها، بوصف الأخير شريان الحياة للأرض السودانية؛ تنفتح على رؤية الكاتب الشمولية في إطار التكامل الثقافي بين الغرب علومه، والشرق أصوله " **ثمة آفاق كثيرة لابد أن تزار.. وصفحات بيضاء في سجل العمر، سأكتب فيها جملا واضحة بخط جريء، وأنظر إلى النهر، بدأ ماؤه يربد بالطمي، لابد أن المطر هطل في هضاب الحبشة،.. وأحس بالاستقرار. أحس أنني مهم ومتكامل**"(١).

ونعقب هنا بقولنا أية علامة أفق مفتوح متعدد الدلالات، لكن محدداتها السياقية هي ما تضيء جانبًا منها دون آخر ، فالسياق يعمل على العلامة اختيارًا بداية ثم تضييقًا أواتساعًا لإمكاناتها الدلالية، فإذا ما نظرنا في تحليلنا السيميولوجي لدالة النهر للسياق الكلي الذي ينتظمها في علاقتها بغيرها من العلامات؛ لخلصنا إلى أن اختيار دالة النهر من بين مجموع الدوال التي تتعاطى والدال الأم (كالبحار والمحيطات وغيرها) ؛ إنما هو من قِبل تضييق الدلالة وتحديدها بنطاق الرؤية الأيديولوجية المحددة التوجه في الاتصال بالغربي بالقدر الذي يكفل الاستمرارية والنمو، فحاجتنا إلى الماء هي الحاجة لتجديد تربة نهرنا، ليربد الطمي، طمينا، فحاجتنا له مشروطة بالإفادة منه دون الذوبان فيه "**وتحددت علاقتي بالنهر، إنني طاف فوق الماء ولكنني لست جزءًا منه**" (٢).

والطيب صالح بنموذج المثقف العربي المتمثل في شخصية الراوي وتوجهه الفكري يرشح مفهوم المثاقفة بديلا للمقاومة في الخطاب الموجه للغرب تأكيدًا لإمكانية التعددية الثقافية في إطار هوية جمعية أو مزدوجة، فالتجربة الثقافية، بل كل صيغة ثقافية، هي جذريًّ، وفي جوهر الجوهر تجربة هجينة"(٣)، وهو ما من

(١) الطيب صالح، موسم الهجرة، ص:٩

(٢) نفسه، ص:١٥١

(٣) ينظر: إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ص ١٢٥

شأنه" خلق حوارات حضارية لتجاوز الأيديولوجيات التي تكرس الصدام بين الشرق والغرب"[١]، ورواية موسم الهجرة بهذا الطرح الإيديولوجي تطبيق حي لنظريات أدب ما بعد الاستعمار في بعدها الخلاق بتأكيداتها على ضرورة الانفكاك من أسر فكرة الهيمنة وطرح خيار المشاركة، ف"عهد التفسير الواحد والنظرية الثانية والخطاب الجامع قد ولّى، والمركز لا يملك الهيمنة الفكرية كما في السابق على الأقل من الناحية المعنوية، وللأطراف أيضًا خطابات وتصورات حول طبيعة هذه العلاقة الاستعمارية فيها الكثير من العمق والمعرفة الدقيقة بالذات والآخر"[٢] .وهي الرؤية عينها التي كتبها التي لم يخط الكاتب سواها في صفحة الإهداء " **إلى الذين يرون بعين واحدة، ويتكلمون بلسان واحد، ويرون الأشياء إما سوداء أو بيضاء، إما شرقية أو غربية**"[٣] ، فبها بدأ وإليها انتهينا.

****

(١) رشيد وديجي، إدوارد سعيد ونظرية خطاب ما بعد الاستعمار، ص:٢٢٢

(٢) كريم بخيت، بين الأدب والنقد والسياسة، قراءة في كتابات إدوارد سعيد، مجلة بصمات، منشورات كلية الآداب، بنمسيك، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م، ص٥٣

(٣) نفسه، ص: ١٣٦

نتائج الدراسة

١- تشكلت رؤية المثقف العربي في مرحلة الكولونيالية من خلال شخصية البطل اللامنتمي، الحامل رؤية أحادية هي مفرز سياسات الاستعمار وما صاحبها من فكر العولمة، فكان استلاب الهوية في مقابل الهوية النموذجية/هوية. وجاءت هذه الرؤية مغايرة لما استقرت عليه الدراسات النقدية من أن مصطفى سعيد العربي الثائر الذي وفد ديار الغرب غازيًا منتقما لسنوات الاستعمار وويلاته، وهي الرؤية التي استندت إلى هيمنة الخطاب السائد في أدب ما بعد الاستعمار دون المحاولة الجادة لاستنطاق النص من داخله. وقد تحددت ملامح الرؤية من خلال الدوال النصية الكثيفة بنص الرواية، فكان الوقوف على مدلولاتها وفك شفراتها وربطها بغيرها من الوحدات الدلالية. كذلك كان للسرد أبنيته وآلياته في ارتباطها بالوحدات البنائية في النص دورًا بارزًا في الكشف عن البنية الدلالية، وبشكل خاص الشخصية الروائية طريقة الإخبار عنها، ونموذجها العاملي. فعلاقة مصطفى سعيد بجين مورس في هذه المرحلة حددت ملامح الرؤية بعلاقة الرغبة – بين مصطفى/ المثقف الكولونيالي، وجين/ النموذج الغربي، فضلاً عن الحدث المجسد سياسة التطبيع وآلياتها.

٢- مثلت الشخصيات النسائية الغربية الثلاث (آن همند– شيلاغرينود– إيزابيلا سيمورا) منطلقًا فكريًّا لاتصال العالمين، فبالرغم من أن وجوههن الغربية، فإنهن يلتقين في مجال دلالي واحد يفتح أفق المتلقي على الدوائر المشتركة بين الأنا والآخر؛ حيث حملت كل شخصية شكلاً من أشكال الاتصال بين الشرق والغرب:

- "آن همند" دالة تاريخية اقترنت بالموروث لتستدعي ما كان من سيادة العرب على الغرب، وذلك في تأكيد حضور الجماعة العربية تاريخًا ولغةً بما يحدد الهوية العربية أصلا في إطار الرؤية الشمولية التي يتبناها النص.

- "شيلا غرينود" أيقونة الفكر الغربي الإيجابي بنزعاته الأخلاقية وجهوده الإصلاحية، وذلك في تأكيد على البعد الإنساني المشترك استثمارا لفكرة العالمية في مقابل العولمة.
- " إيزابيلا سيمورا" نموذج الهوية الجمعية المشتركة؛ فهي" إسبانيا"، لحمة الهوية وسداها في جسد واحد ملامحه شرقيه غربية ينبض قلبه بالمحبة والتسامح والإخاء.

٣- مثلت علاقة البطل المتشظي بالشخصيات السابقة ذروة التأزم على مستوى إشكالية الرواية، فبينما حددت ملامح الشخصيات الثلاث الرؤية الشمولية بُعدًا أوليًّا لموقف المثقف العربي من الغرب؛ فإنها ممزقة بين علاقتي الرغبة والصراع في اتصالهما بالذات/البطل، فالعلاقة الصراعية بين الذات والموضوع محددة بالمرحلة الأولى، حيث السعي إلى طمس ملامح الهوية العربية في شكل من أشكال الإكراه القسري بأثر من فكر العولمة ومصاحبات الاستعمار، فكانت الشخصيات الثلاث في نظر مصطفى سعيد حاملة لجرثومة المرض بوصفها ممثلة لمصادر الهوية العربية لغةً وتاريخًا (آن همند)، أو أصولاً تراثية (إيزابيلا)، أو توجهًا أيديولوجيًّا صوب القضايا العربية دفاعًا عنها وإيمانًا بها (شيلا غرينود)، وكانت نهايتهن بالموت رمزية لقطع الصلة بكل ما هو عربي، والخلوص لكل ما هو غربي.

٤- تحددت الرؤية الشمولية للمثقف العربي فيما يتصل بعلاقة الشرق والغرب/الأنا والآخر/ الشمال والجنوب بتحول على مستوى الشخصية/البطل، فهما مرحلتان من الغياب والحضور، من الضبابية والوعي، فتوارت صورة مصطفى سعيد ابن المستعمر، وتجلت شخصية الراوي بتفكيره الوسطي، فهو ابن هذه الأرض، بدالة حسنة (الأرض السودانية)، الجد/ الأصل العربي الضارب بجذوره والشامخ حتى السماء، لكنه غير متقعر في دهاليز العقم الفكري والموروثات البالية، هو أنموذج المثقف الواعي بتوجهه الإيديولوجي

الملامس عمق نظريات ما بعد الاستعمار ورؤاها الحديثة، التي لا تغض الطرف عن دور الإمبريالية الثقافية؛ مما يجعلنا نخلص إلى أن موسم الهجرة إلى الشمال خطاب ثقافي ينفتح على مفاهيم المثاقفة وحوار الحضارات ويرشح الهوية الجمعية في اتجاه نحو العالمية، وتظل الرواية بقوالبها السردية وعوالمها المتخيلة هي الأقدر على تطهير التربة من أحقاد الماضي، واستنبات الخير من أرض الحاضر.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

*موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، الإسكندرية، دار العين، ٢٠٠٤.

ثانيا: المراجع العربية:

١- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، مكتبة بغداد، بيروت- لبنان،الطبعة الرابعة، ٢٠١٤م.

٢- إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م

٣- أفنان القاسم، موسم الهجرة إلى الشمال أو وهم العلاقة شرق وغرب، عملية نقد ونقض الرواية، الطبعة الأولى، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٤م.

٤- أمين المعلوف، الهويات القاتلة، قراءات في الانتماء والعولمة، ترجمة نبيل محسن، دار ورد للطباعة والنشر، سورية- دمشق، الطبعة الألى، ١٩٩٩م.

٥- جبرا إبراهيم جبرا، المآسي الكبرى لوليم شكسبير (هاملت، الملك لير، عطيل، ماكبث)، مع دراسات نقدية، المؤسسة العربية، بيروت، الطبعة العربية الثانية، ٢٠٠٠م.

٦- جمال الدين الخضور، قمصان الزمن" فضاءات حراك الزمن في النص الشعري العربي: دراسة نقدية، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠م.

٧- جورج الطرابيشي، الماركسية والإيديولوجيا، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧١م.

٨- جورج الطرابيشي، شرق وغرب، رجولة وأنوثة، دراسة في ازمة الجنس والحضارة في الرواية العربية،دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٧م.

٩- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
١٠- حكمت صباغ الخطيب (يمنى العيد) ، في معرفة النص، بيروت، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م.
١١- حميد لحمداني، النقد الروائي والأيديولوجيا، من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
١٢- حميد لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
١٣- خيري دومة، عدوى الرحيل، موسم الهجرة إلى الشمال ونظرية ما بعد الاستعمار، دار أزمنة، ٢٠١٠م.
١٤- سالم شاكر، مدخل إلى علم الدلالة، ترجمة محمد يحياتين، دار المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٢.
١٥- سعيد بنكراد، شخصيات النص السردي، البناء الثقافي، سلسلة دراسات وأبحاث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، الطبعة الأولى،١٩٩٤م.
١٦- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي إلى سقوط الخلافة بقرطبة، دار المعارف، لبنان.
١٧- سيزا قاسم، بناء الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة إبداع المرأة، القاهرة، ٢٠٠٤م.
١٨- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، الكويت،١٩٩٢م.
١٩- صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٩٨م.

٢٠- عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة(٩٢- ٨٩٧هـ) (٧١١- ١٤٩٢م)، دار القلم، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٠٨م.

٢١- عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، تونس، الدار التونسية للنشر، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٦.

٢٢- عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثامنة، ٢٠١٢.

٢٣- عبد الله الغذامي ، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الرابعة – ١٩٩٨م .

٢٤-كريم بخيت، بين الأدب والنقد والسياسة، قراءة في كتابات إدوارد سعيد، مجلة بصمات، منشورات كلية الآداب، بنمسيك، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.

٢٥-مجدي شبيكة، السودان عبر القرون، دار الجيل- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م.

٢٦- محمد عزام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج الحداثية، "دراسة في نقد النقد"، منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق، ٢٠٠٣م.

٢٧-محمود أحمد نحلة، آفاق جديد في البحث اللغوي المعاصر، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية،٢٠٠٦م.

٢٨-نعيم اليافي : الشعر والتلقي (دراسات في الرؤى والمكونات) – دار الأوائل للنشر والتوزيع – سوريا – دمشق ، الطبعة الأولى – ٢٠٠٠م.

ثالثا: المراجع المترجمة:

٢٩- أليكس ميكشيللي، الهوية، ترجمة علي وطفة، دار الوسيم، دمشق، الطبعة العربية الأولى، ١٩٩٣.

٣٠- بوتومور، الصفوة والمجتمع، دراسة في علم الاجتماع السياسي، ترجمة وتقديم: محمد الجوهري وآخرون،، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سلسلة علم الاجتماع، الكتاب السادس، مطبعة الانتصار، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨م.

٣١- تشارلز تشادويك، الرمزية، ترجمة نسيم إبراهيم يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.

٣٢- تيري إيجلتون، الماركسية والنقد الأدبي، ترجمة جابر عصفور، منشورات عيون، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية ١٩٨٦م.

٣٣- تيري إيغلتون، الماركسية والنقد الأدبي (الأدب والتاريخ)، ترجمة: عبد النبي إصطيف، مجلة الآداب الأجنبية، العدد ٤٨، السنة ١٣، صيف ١٩٨٦م.

٣٤- جورج لوكاتش، نظرية الرواية، ترجمة وتقديم: نزيه الشوفي، نسخة طباعة وتوزيع المترجم، ١٩٨٧م.

٣٥- جيرار جينيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.

٣٦- رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة: جابر عصفور، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م.

٣٧- رولان بارث، لذة النص، ترجمة: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الثانية،٢٠٠٢م.

٣٨- سيغموند فرويد، الطوطم والتابو، ترجمة: بو علي ياسين، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

٣٩- فرانز فانون،" بشرة سوداء وأقنعة بيضاء" تعريب: خليل أحمد خليل، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

٤٠- فرانز فانون، معذبو الأرض، نقله إلى العربية: سامي الدروبي، وجمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر- القاهرة، ٢٠١٥م

فلاديمير لينين، رسائل لينين في الأدب والفن، ترجمة: يوسف الحلاق، الجزء الأول، دمشق، ١٩٧٢م.

٤١- كارلتون إس كون، إدوارد أ. هنت الابن، السلالات البشرية الحالية، ترجمة: محمد السيد غلاب، مؤسسة الأنجلو المصرية -القاهرة، ١٩٧٥.

٤٢- كولن ولسن، ضياع في سوهو، دار الآداب، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٩م.

٤٣- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة: محمد برادة، دار الأمان، الرباط، ١٩٨٧م.

٤٤- وليم شكسبير، العاصفة، تعريب: أ.ر مشاطي، إشراف: نظير عبود، دار نظير عبود، بيروت، لبنان، د.ت.

رابعًا: المراجع الأجنبية:

-William Wilberforce and Aolishing theSlave Trad:How true Christian values ended support of slavery,Amasing Grace' Movie: Lessons for Today's Politicians," Copyright Rusty Wright 2007 .

-Tony Martin,Caribrean history:from pre-colonial origins to the present, International Journal of Humanities and Social Science · July 2014,

خامسا: الدوريات:

٤٥- سيزا قاسم، موسم الهجرة إلى الشمال، مجلة فصول، العدد الثاني، يناير ١٩٨١م.

٤٦- عبد القادر عواد، آليات التداولية في الخطاب، الخطاب الأدبي نموذجا، مجلة علامات، ج٤، مج١٩، شعبان ١٤٣٢هـ- يولية ٢٠١١.